زكريا تامر

سنضحك

قصص

RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

Scanned by
Jamal Hatmal

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

زكريا تامر

سنضحك

قصص

RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

WE SHALL LAUGH

SHORT STORIES

BY

ZAKARYA TAMER

First Published in 1998
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 185513 290 7

All rights reserved. No part of this publication
may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise,
without prior permission in writing of the publishers

الغلاف: تصميم محمد حمادة

الطبعة الأولى: كانون الثاني /يناير ١٩٩٨

المحتويات

مقدمة ١١
١ ـ ظلمات فوق ظلمات ١٣
٢ ـ العشاء الأخير ١٧
٣ ـ النائمات ٢١
٤ ـ الناجحون في الاختبار ٢٥
٥ ـ آخر المحققين ٢٩
٦ ـ الغرفة الأربعون ٣١
٧ ـ الغاشية ٣٥
٨ ـ سناء وبهاء ٤١
٩ ـ أف! ٤٣
١٠ ـ المؤذن لا يؤذّن ٤٩
١١ ـ السارق والمسروق ٥١
١٢ ـ منتصف الليل ٥٣
١٣ ـ المتنكر ٥٥
١٤ ـ المشجب ٥٧

١٥ ـ العروس ٦١
١٦ ـ المتواري عن الأنظار ٦٣
١٧ ـ إحدى المدن ٦٩
١٨ ـ النفق ٧١
١٩ ـ الخصم الأخير ٧٣
٢٠ ـ العائلة المقدسة ٧٥
٢١ ـ حملة نابليون الدمشقية ٧٧
٢٢ ـ الوارث ٧٩
٢٣ ـ الممثلة ٨٣
٢٤ ـ كمائن العنكبوت ٨٧
٢٥ ـ الطوفان ٨٩
٢٦ ـ خطى الوحيد ٩٣
٢٧ ـ أبناء النجار ٩٧
٢٨ ـ بحر أخضر مجهول ٩٩
٢٩ ـ بيت كثير الغرف ١٠١
٣٠ ـ لمن الورد الأصفر؟ ١٢٣
٣١ ـ طير أسود في سماء زرقاء ١٢٧
٣٢ ـ ليلة للثرثرة ١٣٣
٣٣ ـ طيران المتعبين ١٤١
٣٤ ـ العضّاض ١٤٣
٣٥ ـ أقفاص مفتوحة الأبواب ١٤٥
٣٦ ـ المحسودة ١٥١
٣٧ ـ المرشد ١٥٥
٣٨ ـ صباح الخير ١٥٧

٣٩ ـ الغروب ١٦١
٤٠ ـ يوم طويل ١٦٧
٤١ ـ شجر الصحارى ١٧١
٤٢ ـ نهار المفاجآت ١٧٩
٤٣ ـ عندما يأتي المساء ١٨٣
٤٤ ـ المنتظر ١٨٩
٤٥ ـ الوالي الأبديّ ١٩١
٤٦ ـ الحقيبة ١٩٣
٤٧ ـ أربعة رجال وامرأة ١٩٥
٤٨ ـ البكّاء ١٩٧
٤٩ ـ البقايا ٢٠١
٥٠ ـ بعض ما جرى لنا ٢٠٧

مقدمة

صانع فتّان لعالم مثير

الفن، في أحد تجسداته العظيمة، هو فن فضح المكبوت، وتحرير المقموع، وتعرية الهواجس المتناقضة وراء حجب العالم، وصلادة الواقع، وسطوع الوعي.

وزكريا تامر هو دون ريب فنان هذا الكشف والفضح والتعرية، تتحرك كتابته الأخاذة في فضاء يتقاطع فيه الوعي بما هو دفين في فوضى مرعبة، في أغوار اللاوعي، والعادي بالخارق، والسحري بالمألوف، والعقلاني بالجنوني، والفاجع المأسوي بالمقهقهه الساخر، وهو يؤسس، بذلك كله وبغيره، جماليات جديدة هي سمة إبداعه الأولى: جماليات خَرْقَنَة العاديّ، وعَوْدَنَة الخارق، وجلاء سحرية الواقع وسرابيته وخداعيته وقناعيته. لا شيء هو كما يبدو عليه على السطح. الحقيقة دفينة في سراديب ومتاهات تتفجر وتتعثكل بالرعب والعنف والجريمة، وبالبراءة والحلم المرهف والتوق إلى عالم آخر أكثر بهاء وحرية وإنسانية وأماناً، وتشكل تقنياته المدهشة حيث يتلاقى الحلم والواقع، الزيف والحقيقة، الفعل والكلام في فضاء واحد لا يفصلها شيء، لا مجازاً بل فعلاً. إن الذات لتعي الحد الفاصل بين الحلم والواقع وعياً حاداً، لكن تقنية القص والحدث المكثف يخترقان هذا الفاصل ـ بل يرفضان الاعتراف بوجوده أصلاً. وفي ذلك كله يقوم زكريا تامر بلعبة فنية باهرة: إنه يعقلن

اللامقعول، لا من أجل جعله مستساغاً، بل من أجل أن يكشف إرعابيته وغوريته وجموحه وفاعلياته الكاسحة في الحياة كلها: الفرد والمجتمع، الرجل والمرأة، الوعي واللاوعي.

وهو يبتكر بذلك جماليات الهيكل العظمي العاري، ينحته دون زخرف أو زينة أو بلاغيات، فيزيد بذلك حدة إبرازه ونصاعة تشكلاته. يصبح الاقتصاد اللغوي والبساطة السردية نقيضين لذاتهما إذ يتحولان إلى فيضان دلالي وكثافة في الكشف يتركان المتلقي في حالة تشبه الذهول أمام شلالات سوداء من الدلالات الخبيسة والترميزات الوامضة التي تفيض عبر فجوات النص دون أن تكون لغة المبدع أفصحت عنها إفصاحاً أو ألمحت إلماحاً.

زكريا تامر، في نهاية المطاف، حفّار قبور ما تحت الوعي العربي في زمن يحتشد فيه هذا الما تحت بألف ألفٍ من المقموعات والمكبوتات والشهوات والرغبات ومكونات الفجيعة والانكسار والثورة والإجهاض والتناقضات والصراعات. إنه شاهد مبدع على عصره، وصانع فتّان لعالم مثير حتى الإرعاب.

لقد ارتقى زكريا تامر بفن القصة القصيرة إلى مستوى لم يبلغه إلاّ عدد ضئيل من المبدعين، لا في العالم العربي وحسب، بل في العالم الرحب كله، وقدّم إسهاماً عربياً أصيلاً في تكوين فضاء الإبداع المعاصر، في زمن ضمُر فيه إسهام العرب في صنع ثقافات العالم وحضاراته، خارج مجال الإبداع، ضموراً فاجعاً.

في قصصه الجديدة، هذه، يستمر زكريا تامر في مغامرة كشفه وإرهاف أدواته وتعميق أبعاد تكوينه المعرفي، وفي إخلاصه لفن ترك عليه وسمه المتميز، كما يتابع سعيه إلى ربط فن السرد بمنابع غائرة في تاريخ الإبداع العربي وإلى اكتناه مشارف للإبداع القصصي على مستوى العالم. إنه أحد أكثر الأصوات فرادة وتميزاً في تاريخنا الأدبي.

د. كمال أبو ديب

أستاذ كرسي العربية في جامعة لندن

١

ظلمات فوق ظلمات

لمحنا جارنا يطلّ من شرفة بيته في الطابق السابع من المبنى الضخم الذي نسكن في أقبيته، فأغرانا ما نعرفه عنه بأن نلوّح له بأيدينا مطلقين الصيحات التي تناديه وترجوه أن يهبط من أعلى إلى أسفل لأمر مهمّ للغاية لا يحتمل التأجيل، ولم ندهش عندما سارع إلى تلبية ندائنا، وقلنا له :« ماذا تفعل وحدك فوق ؟ ألم تضجر؟».

فقال لنا متسائلاً بمرح: «وأنتم ماذا تفعلون تحت؟».

فقلنا له: «ما رأيك في أن نتسكع قليلاً لترى ما لم تكن يوماً تتوقع أن تراه؟».

فقال لنا إنّ ما نقترحه عليه لا يثير فضوله، فلا وجود لشيء لم يره أو لم يعلم به، فقلنا له: «جرّب، وسترى أنّنا لا نكذب».

وسرنا معاً في الأرض تلاحقنا الصيحات المستغيثة وتطوقنا.

رأينا رجالاً يحفرون قبوراً لنساء لن يحبّوا غيرهنّ..

رأينا أروع نساء يتحوّلن دمى من شمع وحرير..

رأينا مشانق يتدلى منها أطفال وعصافير..
رأينا ورداً أبيض تحوّله الدماء المسفوكة ورداً أحمر..
رأينا أنهاراً تستجدي الماء من الرمال..
رأينا جبالاً شاهقة تستحيل غباراً..
رأينا أمهات يرمين أطفالهن في صناديق القمامة..
رأينا أبناء يركلون آباءهم وأمهاتهم ضاحكين..
رأينا رجالاً يبترون أقدامهم غير آسفين لتحقّ لهم الإقامة بملاجىء العجزة..
رأينا رجالاً يُعرضون للبيع، ويغتمّون حين لا يجدون مشترياً..
رأينا أوثاناً تُعبد وتُطاع ويُلقى بمن يعصى في نار الدنيا..
رأينا نجوماً تبتهل إلى الناس المحنيّة رؤوسهم أن يودّعوها قبل أن يتواروا..
رأينا طيوراً نسيت كيف تطير..
رأينا أفيالاً جنّت وتتوسل إلى أرانب مذعورة أن تؤجل افتراسها..
رأينا جرذاناً تطارد قططاً تجري بأقصى سرعة وتموء مرعوبة باحثة عن حماية..
رأينا أجمل كلمات تُخنق..
رأينا صخراً يبكي..
رأينا قمراً يبزغ على مدن ليس فيها سوى المنتحرين طلباً للنجاة مما هوّ أشدّ هولاً من الموت..
رأينا مدناً تنتحب طوال الليل، وتمسح دموعها في النهار مطلقة الضحكات..

رأينا سجناء يكرهون يوم خروجهم من السجون..
رأينا أمماً تولد في القبور وتموت في القبور..
رأينا أطفالاً لم يعرفوا الضحك ولا البكاء..
رأينا شعوباً معصوبة العيون تنتظر لحظة إعدامها، ويتأخر جلادوها في التنفيذ حتّى يتمتعوا برؤية رعبها.
فنظرنا بفضول إلى جارنا العليم بكلّ شيء، فإذا هو واجم غاضب كأنّ الذين رآهم يتعذّبون هم أبناؤه العاجز عن نجدتهم، ولم يحاول في أيّ يوم الرجوع إلى حيث كان يقيم، وازداد عدد المعذبين.

٢

العشاء الأخير

تسكن عائلة الحواصلي وعائلة الخربوطلي في بيتين متجاورين، وتسود بينهما علاقات ودّية تجعلهما أشبه بأهل بيت واحد، ولكنّهما اختلفتا فجأة بسبب كلب اقتنته عائلة الحواصلي، واحتجّت عائلة الخربوطلي على وجوده قائلة إنّ الكلب نجس وأنفاسه تنجّس كلّ شيء في دائرة قطرها أربعون ذراعاً، فكان ردّ عائلة الحواصلي أنّ كلبها مطيع، مؤدّب، مهذّب، لطيف، مسالم، وديع، ذكيّ، لا ينبح ولا يعضّ، يلاعب الأولاد ويحرس البيت.

وعندما تكاثرت احتجاجات عائلة الخربوطلي، سمعت من عائلة الحواصلي جواباً بارداً صارماً: الكلب كلبها والبيت بيتها، وهي حرّة تفعل ما تشاء، فاعتقدت عائلة الخربوطلي أنّها قد أهينت إهانة بالغة، وسارعت إلى شراء كلب شرس، يعضّ وينبح ليلاً ونهاراً، ويهاجم كلّ من يراه، ويحلو له كلّما خرج للتنزه في الحارة أن يرفع إحدى قائمتيه الخلفيتين ويبول على باب البيت الذي تسكنه عائلة الحواصلي التي نبهت عائلة الخربوطلي إلى ما يفعله كلبها كلّ

يوم، فلم تتخذ عائلة الخربوطلي أيّ اجراء، واكتفت بالقول إنّ الكلب مجرد حيوان ولا يمكن التفاهم معه لأنّه لايعرف اللغة العربية، فصبرت عائلة الحواصلي آملة أن تتبدّل الأحوال، ولكنّ لا شيء تبدّل، وبات باب بيتها ذا رائحة مقززة لا تطاق.

وفي صباح يوم من الأيام، وجدت عائلة الخربوطلي كلبها مقتولاً، فحزنت عليه حزناً شديداً، ولكنّها لم تتهم أحداً بقتل كلبها، وحرصت على أن تشيّع الفقيد تشييعاً يعبّر عمّا تكنّ له من محبة، فوُضع الكلب في نعش غُطّي بحرير ورديّ اللون، وسار الرجال والأطفال وراء النعش بخطوات بطيئة وثياب سود منكسي الرؤوس بينما كانت النساء يطلقن الولاويل التي تندب من مات في عزّ الشباب وريعان الصبا.

وبعد أسابيع من مصرع الكلب، دعت عائلةُ الخربوطلي عائلةَ الحواصلي إلى عشاء تعود فيه العلاقات الودية إلى سابق عهدها، فرحبت عائلة الحواصلي بتلك الدعوة ولبّتها، وجاء إلى العشاء الرجال والنساء والأطفال وبرفقتهم كلبهم، فإذا الأبواب بعد دخولهم تغلق سرّاً وبإحكام شديد، ويهجم رجال عائلة الخربوطلي ونساؤها وأطفالها بالسكاكين على عائلة الحواصلي وكلبها، ويذبحون الجميع قبل إطعامهم، ويدفنونهم في حديقة البيت.

وخلعت عائلة الخربوطلي الثياب السود، وأذاعت في الحارة نبأ مفاده أنّ عائلة الحواصلي اضطرت بغتة إلى السفر، ولكنّ بهجتها لم تستمر، ففي كلّ صباح تجد على باب بيتها ما يدلّ على أنّ كلباً ما قد بال عليه في الليل، واستخدمت كلّ السبل لضبط الفاعل ومعرفته، فلم توفق، وزعم بعض السكارى والمقامرين ورواد الملاهي

الذين يعودون إلى بيوتهم في آخر الليل أنّهم رأوا كلب عائلة الحواصلي يبول على الباب، فسُخر من زعمهم، فالكلب رحل برفقة عائلته المسافرة، وهو كلب مؤدّب ومهذّب، لا يمكن أن يبدر منه ما لا يليق.

٣

النائمات

بكت سعاد أمام أبيها وأمّها وإخوتها الثلاثة الشبان مطأطئة الرأس، وناشدتهم المسارعة إلى ذبحها بلا شفقة محواً لما لطخها من عار، فتكلّم الأب بصوت صارم طالباً إليها أن تحكي بالتفصيل عمّا جرى لها، فقالت سعاد بصوت متهدج: «ما حدث لي لا يصدق، ولكنّه حدث لي مع أنّه لا يصدق».

فأمرها الأب بصوت أشدّ صرامة أن تحكي عمّا جرى لها من دون مراوغة، فحكت سعاد كلّ ما جرى لها.

كانت سعاد ليلة أمس نائمة في غرفتها بعد أن أقفلت الباب من الداخل كعادتها بالمفتاح والمتراس. وفي أثناء نومها، رأت أنّها تمشي في حديقة عامة ليس فيها أيّ مخلوق، فهجم عليها فجأة شاب لا تعرفه، ولا تعلم أين كان مختبئاً، وطرحها أرضاً، وجثم فوقها، ومزق ثيابها، ونال كلّ ما يرغب فيه، ولم يبال بتوسلاتها وصياحها المستغيث ودموعها التي بللت وجهها ووجهه، ثم رأت مناماً ثانياً كانت فيه تمشي في شارع مزدحم بالناس، فانقضّ عليها الشاب

نفسه، واغتصبها أمام الناس الذين لم يتوقف واحد منهم للتفرج على ما يحدث، ثم رأت سعاد مناماً ثالثاً كانت فيه تزور قبر جدّها، وبينما هي تتلو سورة الفاتحة وتهبها لروحه، بوغتت بالشاب نفسه يهاجمها ويغتصبها ثلاث مرات قائلاً لها وهو يضحك إنّ الفضل في نشاطه يرجع إلى المكان الجميل.

قال الأب لسعاد: «ومن هو هذا الشاب؟».

قالت سعاد: «لا أعرفه ولم أره مرة في حياتي كلّها، وكيف لي أن أعرفه ما دمت قد رأيته في المنام، ولكنّي إذا رأيته مرة أخرى، فسأعرفه فوراً، ولا يمكن أن أنسى وجهه».

فقال الأب لسعاد: «وماذا حدث لك عندما أفقت من نومك؟».

قالت سعاد: «رأيت أنّي مستلقية على سريري ممزقة الثياب، ملطخة بالدم، تغطي جسمي الكدمات وآثار الأظافر والأسنان».

قالت الأم: «هذه البنت بنتي، وأنا أعرفها. نومها ثقيل لا يوقظها دويّ المدافع. المسألة ليست لها أيّة صلة بالنوم والمنامات، ولا بدّ من أنّ أحد شبّان الحارة الطائشين تسلل إلى غرفتها واعتدى عليها وهيّ نائمة».

قال الأب: «ومن هوّ هذا الشاب المجنون الذي يتجرأ على الدخول ليلاً إلى بيت فيه أربعة رجال؟».

وتصايح إخوة سعاد الشبان غاضبين متوعّدين أنّهم لو عرفوا من هو ذلك الشاب لقتلوه وقطّعوه قطعاً، أكبر قطعة أصغر من الزبيبة.

وقالت سعاد لأمّها: «لو كان كلامك صحيحاً لاستطعت معرفة الشاب، فكلّ شبان الحارة أعرفهم واحداً واحداً».

وسأل الأب سعاد: «وهل قاومت مقاومة البنات الشريفات؟».

قالت سعاد: «قاومت وصرخت بأقصى قوة يملكها صوتي، فكان يضحك ويقول لي إننا الآن في منام، وما يحدث في عالم النائمين لا يعلم به عالم المستيقظين».

ففكّر الأب طويلاً ثم تكلّم بصوت مرتعش، وحذّر ابنته من أن تحكي لأحد عمّا جرى لها، ولكنّ ما حدث لسعاد سيحدث أيضاً لكثيرات من نساء الحارة، وسيحتار الرجال، ويعجزون عن الإنتقام ممن يعتدي على أعراضهم، ويحاولون أن يمنعوا نساءهم من النوم، ولكنّ المحاولة تخفق، وتضطر النساء إلى النوم، ويتعرضن للاغتصاب، ويستيقظن من نومهنّ ممزقات الثياب.

٤

الناجحون في الاختبار

دخل إلى غرفة الطبيب ثلاثة رجال وممرضة، فرحّب الطبيب بالرجال، ورجاهم الجلوس مشيراً إلى المقاعد القريبة من الطاولة التي كان يجلس وراءها، وطلب إلى الممرضة أن تحضر لهم القهوة، فبادرت إلى الخروج من الغرفة بخطى مسرعة.

قال الطبيب للرجال الثلاثة: «أرجو ألاّ تعتبروا هذه الجلسة جلسة طبيب مع مرضاه بل اعتبروها جلسة تسلية ومزيد من التعارف خاصة وأنّكم شفيتم وستغادرون المستشفى في وقت قريب بعد أن أنجز كتابة تقريري عن أحوالكم».

لم يتفوه المرضى الثلاثة بأيّة كلمة، فقال الطبيب لهم: «أنا محتار ولا أعرف كيف أبدأ حديثي معكم لأنّي تعوّدت الأسئلة الطبية، وصرت أجهل الأحاديث العادية. سأسألكم: مَنْ مِنكم رأى بحراً؟».

فظلّ المرضى الثلاثة صامتين واجمين، فقال الطبيب لأحدهم: «تكلّم يا أنور.. ألم تر في حياتك بحراً؟».

فهزّ أنور رأسه هزة تعني أنّه رأى البحر، فسأله الطبيب: «ومتى رأيته؟».

قال أنور: «رأيته قبل ثلاثة أيّام عندما عرض التلفزيون فيلماً تدور حوادثه في باخرة بحجم بناية وتغرق».

قال الطبيب: «وكيف غرقت الباخرة؟».

قال أنور: «لا أدري، وغرقتُ من دون أن أعلم السبب».

قال الطبيب: «لو كنت تجيد السباحة لما غرقت».

قال أنور: «كنت أجيد السباحة، ولكنّ الماء المالح الذي دخل فمي كان أثقل مني وشدّني إلى قاع البحر».

فأشار الطبيب بيده إلى مريض آخر، وسأله: «وأنت يا أمجد.. ألم تر البحر؟».

فقال أمجد: «أنا أيضاً كنت في هذه الباخرة التي غرقت، وكنت بحّاراً من بحّارتها».

قال الطبيب: «وهل غرقتَ كما غرق أنور؟».

قال أمجد: «قتلتُ قبل أن أغرق، وسقطت كتلة حديدية على رأسي وحطّمته».

قال الطبيب بأسف: «لا حول ولا قوة إلا با لله».

قال أمجد: «والباخرة لم تغرق مصادفة بل أنا الذي ثقبها وأغرقها».

قال الطبيب: «ولماذا أغرقتها؟».

قال أمجد: «ما هذا السؤال؟ أغرقتها لأنّ على سطحها كمية كبيرة من الناس الفاسدين».

قال الطبيب: «وبالطبع مات الأبرياء ومات المذنبون».

قال أمجد: «إذا كان قتل مليون بريء يؤدي إلى قتل مذنب واحد، فهوّ قتل مفيد، ويجب أن يتكرر كلّما سنحت الفرصة».

قال الطبيب: «ولكنّك كنت تقول كلاماً مختلفاً قبل أن تأتي إلى مستشفانا. أنسيته؟».

قال أمجد: «لم أنسه، وما زلت أتذكّره وأسخر من بلاهتي. كنتُ أقول إنّ قتل مليون مذنب لا يبرر قتل بريء واحد».

فابتسم الطبيب، وقال للمريض الثالث: «وأنت يا سالم؟».

قال سالم: «أنا الوحيد الذي يستحق أن يُسأل عن البحر لأنّي ولدتُ في بيت قريب من البحر، وتعوّدت كلّ يوم أن أمشي فوقه اختصاراً للمسافة بين البيت والمدرسة».

قال الطبيب: «أكنت تمشي على وجه البحر؟».

قال سالم: «أحياناً كنت أمشي على قدميّ، وأحياناً كنت أمرّ فوقه راكباً دراجتي».

في تلك اللحظة، عادت الممرضة إلى الغرفة حاملة صينية عليها ثلاثة فناجين من القهوة، وأعطت كلّ رجل من الرجال الثلاثة فنجانه، فراح الثلاثة يحتسون قهوتهم على مهل غير مبالين بالطبيب الذي كان يحملق إليهم بدهشة ممتزجة بكثير من الغبطة والفخر.

٥

آخر المحققين

مشى مدير السجن بخطوات وئيدة وبرفقته حارسه الضخم الجثة، المسلّح بهراوة، وتفحّص السجناء سجيناً سجيناً، وانتقى منهم خمسة أقوياء طوالاً، وأمر الباقين بالعودة إلى زنزاناتهم.

قال مدير السجن للسجناء الخمسة: «ستُتلى الآن عليكم أسماؤكم، وكلّ واحد يسمع اسمه يخلع ثيابه فوراً وبسرعة البرق».

وأشار مدير السجن إلى حارسه، فصاح الحارس «داوود.. سليمان.. طارق.. عماد.. فتحي».

فهمس سليمان مخاطباً رفاقه بينما هو ينتزع ثيابه على عجل: «يا شباب.. جاء الفرج.. سيُفعل بنا ما كنّا نفعله بالنساء».

فقال له فتحي بصوت خافت: «الخروف بعد ذبحه لا يضيره أن يؤكل نيئاً أو مشويّاً».

وبعد لحظات، وقف السجناء الخمسة عراة أمام مدير السجن وحارسه، فتأمّلهم مدير السجن عابس الوجه، وبصق على الأرض قائلاً: «ما هذه المناظر المؤذية؟».

وصاح الحارس بالسجناء وهو يلوّح بهراوته مهدداً: «اركضوا بأقصى سرعة، والويل لمن يتكاسل».

وركض السجناء الخمسة في باحة السجن ركضاً سريعاً، وقال سليمان لرفاقه: «هيّا اركضوا. أسرعنا في الركض سيطلق سراحه ويخرج من السجن ويسافر إلى الخارج ليمثّل البلد في مسابقات الركض الدولية».

وظلّ السجناء الخمسة يركضون في باحة السجن حتّى تصبب العرق غزيراً من أجسامهم، وعندئذ أمرهم الحارس بالتوقف عن الركض، فامتثلوا لأمره، ووقفوا مشدودي القامات لاهثين، فقال مدير السجن لهم: «أتعرفون لماذا جعلتكم تركضون؟ جعلتكم تركضون حتّى يتحرك الدم في عروقكم».

وصمت مدير السجن هنيهات ثم سأل السجناء فجأة: «أأنتم رجال أم نساء؟ ما بكم ساكتون؟ جاوبوا».

فتصايح السجناء بأصوات حماسية مؤكّدين أنّهم رجال ورجال حقيقيون، فقال لهم مدير السجن: «الكلام سهل، واليوم يومكم لتثبتوا أنّكم رجال، ولستم خشباً مسندة. أمّا إذا كنتم كاذبين، فستندمون وتتمنون الموت ولا تحصلون عليه. زوجات أسيادكم وأسيادي زرن اليوم السجن، وهنّ من سيحققن معكم».

واقتيد السجناء الخمسة إلى غرفة ملأى بالنساء، وليس فيها من الأثاث سوى سرير عريض، وأسفر التحقيق الصارم عن نتائج سارة، وخرجت النساء في آخر النهار من الغرفة الخاوية وهنّ يتثاءبن ويتمطين ويتجشأن، ولم يعد السجناء الخمسة إلى زنزاناتهم.

٦

الغرفة الأربعون

لم يسأم الرجل الصارم الوجه من الانتظار الطويل، فالغرفة فسيحة تحفل بما هو أنيق وفخم، والمقاعد وثيرة، والسكرتيرة امرأة يراها الميْت، فينسى أنّه ميْت، وقد حاول إبان انتظاره أن يتخيّر مسبقاً الكلمات التي سيقولها حين يواجه من ينتظر لقاءه، ولكنّ عينيه المتشبثتين بالسكرتيرة المنهمكة في الردّ على المكالمات الهاتفية طردتا من رأسه كلّ الكلمات.

وفجأة قالت له السكرتيرة وهي تنظر إلى ساعة معصمها: «سيقابلك الآن حسب موعدك معه».

فنهض توّاً عن المقعد الذي كان يجلس عليه بينما فتحت السكرتيرة باباً يفضي إلى ممر طويل، وقالت له: «ستجد غرفته في آخر الممر على اليمين.. آخر غرفة في الممر».

فسار الرجل ذو الوجه الصارم على مهل في الممر الطويل خافق القلب، وكانت الغرف على جانبي الممر مفتوحة الأبواب، ولا نوافذ لها، ومضاءة بأنوار باهرة.

في الغرفة الأولى: رجال يدخنون النراجيل صامتين، ونساء عاريات

يقطّعن الخضروات بسكاكين صغيرة.

في الغرفة الثانية: رجل يعذّب رجالاً مقيدي الأيدي والأقدام، والرجال ساكتون يبتسمون بمرح.

في الغرفة الثالثة: امرأة تضمّ بقرة صغيرة إلى صدرها وترضعها وهيّ تغني لها بصوت يشبه نجمة في ليل أسود.

في الغرفة الرابعة: مشانق تتدلى منها نساء زرق الوجوه.

في الغرفة الخامسة: جنود يمزقون خرائط ويصنعون منها قبعات وزوارق.

في الغرفة السادسة: أكوام من ثلج أبيض.

في الغرفة السابعة: أطباء في ثياب بيض يحملون المناشير والمشارط ويقطّعون طفلاً يحملق إلى فيلم رسوم متحركة يعرضه التلفزيون.

في الغرفة الثامنة: رجل مهترىء الثياب يتقيأ على أكوام من الكتب.

في الغرفة التاسعة: قطّ أحمر اللون يموء ويقفز إلى أعلى محاولاً الوصول إلى قفص فارغ معلّق على الحائط.

في الغرفة العاشرة: سلحفاة لا تتحرك.

في الغرفة الحادية عشرة: أزهار بيض في أوان زجاجية ملوّنة.

في الغرفة الثانية عشرة: مرايا مختلفة الحجوم.

في الغرفة الثالثة عشرة: ثور أسود مستلق على سرير عريض أبيض بجوار طفلة شقراء الشعر.

في الغرفة الرابعة عشرة: رجال صفر الوجوه يحفرون الأرض بأصابع ملطخة بالدم.

في الغرفة الخامسة عشرة: كلب ينبح على صورة فوتوغرافية كبيرة لقمر أبيض في سماء سوداء.

في الغرفة السادسة عشرة: إمرأة وحيدة تعاني آلام المخاض.

في الغرفة السابعة عشرة: أطفال يأكلون خبزاً يابساً وتفّاحاً فجّاً أخضر اللون.

في الغرفة الثامنة عشرة: غربان سود في أقفاص مذهبة.

وتابع الرجل الصارم الوجه سيره في الممر الطويل، وحثّ خطاه حتّى لا يتأخر عن موعده، ثم اضطر إلى الركض السريع، ولكنّ الممر كان طويلاً كأنّه بلا نهاية، وأعياه الركض، فجلس القرفصاء ليستريح قليلاً قبل أن يعاود الركض للوصول إلى الغرفة المطلوبة التي ستتيح ليديه وفمه التلطخ بدماء غزيرة.

٧

الغاشية

﴿١﴾ أقفز من القطار وهو سائر، وأقطف بسرعة عناقيد العنب من الكروم المنتشرة على الجانبين، ثم أركض وراء القطار، وألحق به، وأصعد إليه بغير مشقة بينما هو لا يزال مستمراً في سيره البطيء المتثاقل الصاعد في الطرق الجبليّة.

قال أبي لأمّي: «القطار لا يختلف عن ابن آدم، يمرّ بأيّام شباب وقوّة وأيّام شيخوخة وضعف».

فقالت له أمّي بصوت ساخر: «ما شاء الله! من يسمعك يظنّ أنّك حكيم زمانك ويحسدني على العيش معك».

ونظرت أمّي إليّ بغيظ، وقالت لي: «لن تبطل عادتك في النزول من القطار حتّى تكسر رقبتك».

فضحك أبي وهو يسترخي في جلسته على مقعده في عربة القطار، وقال لأمّي: «لا تهتمي به وتبحّي صوتك. إذا لم تكسر رقبته في صغره، فستكسر في كبره».

قالت أمّي لأبي بصوت موبّخ: «لا تخوّف الولد حتّى لا يصبح مثلك يخاف من ظلّه».

قال أبي لأمّي: «ابننا ليس بنتاً، وسيصير رجلاً».

قالت أمّي: «حظّي قليل لأنّي لم أنجب إلاّ الصبيان العفاريت».

فسألت أمّي: «أنا عفريت أم قرد؟».

فقالت لي: «إخرس».

وقال أبي لأمّي: «سؤال الولد في محلّه. حيّرته. مرة تقولين له: يا قرد، ومرة تقولين له: يا عفريت».

وتوقف القطار في تلك اللحظة في محطة قريبة من إحدى القرى، وصعد إليه جنديان يتصايحان ويترنحان سكرانين، فقال أبي: «نجّانا الله من شرّهما».

ولم ينجّنا الله منهما إذْ اختارا العربة التي نجلس فيها، ودخلا إليها، وقعدا قربنا وهما يضحكان ويثرثران، وفجأة تنبه أحدهما لأمّي، وقال لها: «يا آنسة.. لديّ سؤال محرج وسمج قليلاً.. كم عمرك إذا سمحت؟».

لم تجب أمّي عن سؤاله، واحمر وجهها، وتصنع أبي أنّه لم يسمع السؤال، فقلت للجندي: «عمرها خمسون سنة».

فقالت لي أمّي: «لا تكذب. عمري أربعون سنة».

فقال أبي لأمّي: «عمرك أربعون سنة قبل أربعين سنة».

قالت أمّي لأبي: «لا أحد يؤاخذك. كبرت وخرفت».

ورآني الجنديان أقفز من القطار وأعود إليه بعد قليل محمّلاً بعناقيد العنب، فقفزا مثلي، فوقع أحدهما على الأرض بغير حركة بينما تعثر الثاني في قفزه وتدحرج على الأرض كأنّه بطيخة كبيرة، ثم نهض من سقطته وهوّ يشتم شتائم بذيئة، وهرع إلى رفيقه، وانحنى عليه، وهزّه، وصاح فزعاً: «كسر رأسه.. المسكين».

فقفزت بخوف عائداً إلى القطار، ورأيت من نافذة القطار الجندي قاعداً على الأرض بجوار رفيقه الميّت، فلوّحت له بيدي اليمنى، فلم يرد عليّ.

قال أبي: «هذه نهاية الذين يسكرون وهم ليسوا من أهل السكر».

قالت أمّي: «أنا لا أفهم لماذا يحبّ الشباب أن يسكروا».

قال أبي: «السكر له رجاله».

قالت أمّي: «ما شاء الله! من يسمعك يظنّ أنّك تشرب خوابي».

وتنبهت أمّي إلى أنّي خلعت حذائي وجوربي وابتدأت أحصي عدد أصابع قدميّ، فسألتني عمّا أفعل، فقلت لها متباهياً إنّي أتعلّم الحساب بلا معلّم، فالتفتت أمّي إلى أبي، وقالت له بصوت حانق: «الحمد لله لأنّي أحيا بين عباقرة، ولست وحدك عبقرياً بل ضفادعك مثلك».

وضجرت من أمّي وأبي، وقفزت مرة أخرى من القطار، ولم أحاول اللحاق به، واختبأت في كروم العنب، وظللت مختبئاً حتّى صرت رجلاً قويّاً ذا عضلات مفتولة، ولكنّ القطارات التي كانت تمرّ تبدّلت وصارت سريعة لا يمكن اللحاق بها ركضاً، فاضطررت إلى أن أمشي على قدميّ مسافات طويلة حتّى بلغت إحدى المحطات، وهناك ركبت في قطار لم أسأل عن وجهته، وتنهدت بارتياح لمّا سار، وتنبهت بعد قليل لرجل وامرأة يجلسان قريباً مني، ويتهامسان غاضبين، ولا ابن لهما يراقبهما بغيظ، ويتطلّع في الوقت نفسه إلى ما حوله بعينين زائغتين.

وأغمضت عينيّ متعباً، ونمت، وعندما صحوت، وجدت المرأة والرجل قد لاذا بالصمت متجهمين، ونظرت من نافذة القطار مشتاقاً إلى كروم العنب، ولم أر إلاّ الأراضي الجرداء.

﴿٢﴾ حاولت يدي اليمنى السطو على ما لا أملكه، فحكم عليها بالبتر، وحملق الناس بعيون منتشية إلى يدي وهي تبتر، ولم آسف على فقدها إذْ كانت دائمة الشجار مع يدي اليسرى ولم تجلب لي إلاّ المتاعب، ولكنّي عانيت بطالة طويلة، فنصحني أحد الأصدقاء باستغلال ما جرى لي للانضمام إلى مهنة جديدة لا تتطلب مني سوى التسكع في الشوارع وحضّ الناس بصوت واهن مرتعش على الإحسان إلى رجل مسكين مبتور اليد اليمنى يعجز عن تأمين قوته اليوميّ، فلم أعمل في تلك المهنة المسلية أمداً طويلاً إذْ نبتت لي يد يمنى جديدة تستحق أن توصف بأنّها غريبة الأطوار، فهي يحلو لها الالتصاق بلحم النساء أينما التقته، وتنتزع الورد من حدائقه بتشف، وتكتب على الجدران كلاماً يرتجف حنقاً، وما إن تلمح رجلاً ذا ثراء حتّى تتأهب أصابعها الخمس للانقضاض على عنقه، فأمنعها موبّخاً، ولكنّها في أحد الأيام لم تأبه لي وازدرت تعنيفي وممانعتي، وانقضّت على عنق رجل صلف متعجرف ذي مكانة ونفوذ غير مبالية بصيحاتي المتوسلة المستغيثة، فاعتقلت وحوكمت، ولم يكترث أحد إبان محاكمتي للإنصات لحظةً لدفاعي الذي يثبت براءتي، وحُكم على رأسي بالقطع، وسئلت عن آخر رغباتي، فطلبت ألاّ يكون السيف الذي سيقطع به رأسي مثلوم النصل، فوعدت بسيف يضرب الجبل ويجعله جبلين، وتأكّدت أنّ الوعد لم يكن كاذباً لحظة فُصل رأسي عن جسمي بسهولة ورشاقة، وحُمل ما تبقى مني إلى إحدى المقابر ليدفن في قبر ضيق بارد مظلم، اضطررت إلى العيش فيه قانطاً بعد أن حرمت الكلام والضحك والبكاء، فأشفق عليّ أحد الموتى، وأهدى إليّ رأسه قائلاً عليه إنّه قد سئمه ولا يحتاج إليه.

وفي إحدى الليالي، هجرتني يدي اليمنى بغير استئذان أو مشاورة

لتتابع أداء ما خلقت من أجله، فضحكت ضحكاً طويلاً أثار فضول الموتى، وجعلهم يهرعون إليّ من القبور المجاورة، ويحيطون بي مستغربين متعجبين، فأنبأتهم سبب ضحكي، فالميْت لا يقتل الحيّ، ومن تدفن جثته الممزقة في قبر لا يستطيع أحد اتهامه بأنّه القاتل، وسيظلّ القاتل طليقاً يمارس أعماله ليل نهار، ولم أدهش عندما عاد إليّ الموتى بعد أيّام، واشتكوا أيديهم اليمنى التي تهجرهم خلسة وتهرب منهم، وتخيّلت الكرة الأرضية بأسرها بلا أقمار ولا شموس، ومغطاة بطبقة كثيفة من جثث الذين هلكوا مخنوقين، ولم يجدوا أيدي تنجدهم وتخبئهم تحت التراب.

٨

سناء وبهاء

كان بهاء وسناء جالسين في مقهى مطلّ على البحر، وكان بهاء يحملق إلى سناء كأنه ينصت لموسيقى تمتزج بهدير الأمواج.

لمس يدها، فأحسّ أنّه ماء نهر يجري في بساتين ملأى بشجر التفاح والكرز.

لمس يدها، وقال لها إنّ يدها تشبه عصفوراً صغيراً يحاول أن يطير أوّل مرة.

لمس يدها، فتاقت شفتاه إلى أن تلمسا فمها.

لمس يدها، فقالت له محذّرة بصوت خافت: «الناس ينظرون إلينا».

فنظر إلى الناس ليرى في عيونهم ما جعل يده تبتعد عن يدها كأنّ يدها عقرب ستلسع، وقال لها بصوت هامس إنّه يشتهي أن يزور بيتها ليلاً وينام على الوسادة التي تنام عليها كلّ ليلة، فضحكت سناء، وقالت له بمرح: «كم مرة دعوتك وتدللت عليّ وخذلتني وحرمتني النوم!».

فقال لها بهاء إنّ ما يطلبه جادّ وليس مزاحاً، فنظرت إليه

باستغراب، وقالت له: «كأنّك نسيت أنّي لا أزال أعيش في بيت أهلي، فكيف ستدخل إليه وكيف ستخرج منه؟».

فاضطر بهاء إلى البوح لها بما كان يخفيه عنها، وهو أنّه رجل لا يُرى حين يرغب في ألاّ يُرى، فلم تصدّق ما قاله، وابتسمت بهزء، ولكنّها صدّقت كلّ ما قاله بعد أن جرّب أمامها قدرته على الاختفاء، وأتيح لرأسه في ليال كثيرة أن ينام على وسادتها، وسألته في ليلة من الليالي: «لماذا لا نصبح أغنياء؟».

فسألها بهاء بدهشة: «وكيف سنصبح أغنياء؟».

قالت سناء: «يكفي أن تدخل إلى أيّ بنك وأنت غير مرئي، وتأخذ ما تشاء وتخرج منه، لا من رأى ولا من سمع».

قال بهاء: «ليتني أستطيع تنفيذ ما تقترحين، فقدرتي على الاختفاء تتعطل كلّما أردت استخدامها في أعمال غير شريفة».

فقالت سناء: «ماذا تقول؟ هذه أوّل مرة أعلم فيها أنّ سرقة البنوك عمل غير شريف».

فظلّ بهاء ساكتاً، فقالت له سناء متسائلة بنزق: «ما الفائدة إذن في هذه القدرة؟».

قال بهاء: «يكفي أنها جعلتني أنام على وسادتك».

فنظرت سناء إليه مغتاظة، فإذا هو يتكلم بصدق، ووجدت نفسها تبتسم بزهو وخجل.

٩

أف!

﴿١﴾

طلب غازي إلى زوجته نوال أن تنام وتكفّ عن الثرثرة، فضحكت، وأنبأته أنّها غارقة في نوم عميق وترى حلماً غريباً، فسألها عمّا تراه، فأجابت أنّها في بستان برفقة ما يقارب عشرين رجلاً، وكلّ رجل أجمل من ممثلي الأفلام السينمائية، فوبّخها مذكّراً أنّ المرأة المتزوجة الشريفة لا ترافق رجالاً غرباء، فلم تردّ بكلمة، وسألها ثانية عمّا تراه، فظلت صامتة، واحمر وجهها، وتهدجت أنفاسها، وارتعد جسدها، فالتصق بها حانقاً عليها، ونام نوماً عميقا ليرى أنّه ذهب في صباح مبكر إلى المستشفى ليزور زوجته المريضة المصابة بمرض لا دواء له، فبوغت بسريرها فارغاً، وأخبر أنّها ماتت في أثناء الليل، وصدّق ما سمعه لحظة رآها في غرفة الموتى مسجاة بغير حركة، وجهها شاحب تتشبث به بقايا مرح ماكر شامت، ولم يستهجن ما جرى لها إذْ كانت طوال حياتها تعصاه ولا تكترث لنصحه وغضبه، ولا تفعل إلاّ ما يحلو لها، وغادر المستشفى، وتمشّى في حديقة ملأى بالعشب والشجر

والعصافير والورد المختلف الألوان، واستغرب أن يعجز كلّ ما حوله عن منحه أيّة بهجة، وأن لا يتمكن من التخلص من إحساسه بأنّه مجرد دمية من قشّ رطب يحترق بطيئاً ودخانه أكثر من ناره، ودخل بخطوات واهنة محكمة اتهمه قاضيها بأنّه قتل زوجته نوال، فصاح بدهشة واستنكار قائلاً: «ما هذه التهمة السخيفة؟ كيف أقتل زوجتي وأنا غير متزوج؟ في حياتي كلها، لم أقابل امرأة اسمها نوال».

فقال ممثل النيابة العامة لغازي بصوت ساخر: «ولكنّك متزوج من نوال منذ ثلاثين سنة، فهل دماؤها التي لطخت يديك جعلتك فاقد الذاكرة؟».

فقال غازي إنّ عمره أقلّ من عشرين سنة، ولا يعقل أن يكون متزوجاً قبل عشر سنوات من ولادته، فقال ممثل النيابة العامة للقاضي: «هذا المتهم الماثل في قفص الاتهام هو في الخمسين من عمره، ولكنّه يبدو شاباً صغيراً لأنّ ما يحدث الآن في هذه المحكمة يحدث في منام هو منامه، وخلق لنفسه الصورة التي تناسبه وتضلل العدالة وتنجي عنقه من حبل المشنقة».

وكان القاضي في منام غازي أعمى وأصم، اشتهر بظلمه وقسوته، فحكم على غازي بالشنق حتّى الموت، ووبّخه لأنّه تخيّله في منامه ظالماً وقاسياً لا يرى ولا يسمع، وما تخيّله إساءة إلى القضاء والعدالة لا تغتفر، فاستقبل غازي الحكم غير مبال واثقاً بأنّ ما يراه ليس سوى حلم، وحاول أن يستيقظ من نومه، فأخفق، وتدلى مشنوقاً.

﴿٢﴾

كلّ ما كان حولها في الواجهة الزجاجية المطلة على الشارع طلبه

راغبون وتفحّصوه وساوموا على سعره وبيع لهم، وبقيت وحدها سكيناً قديمة، مرهفة النصل، تواقة إلى يد قوية غير هيّابة، ونادت رجالاً كثيرين عبروا الشارع، فلم يأبه أيّ منهم لندائها، ولكنّ غازي ذا الوجه الواجم المتجهم ما إن لمحها مصادفة معروضة في واجهة المحل حتّى افتتن بها، وهرع إلى داخل المحل، واشتراها من دون أن يساوم طويلاً حول السعر المحدد لها، وتأملها لحظات معجباً، ولفّها في صفحة من جريدة عتيقة، وغادر المحل مبتهجاً كأنّه يتأبط ذراع صديق قديم لم يره منذ سنوات.

ولمّا عاد غازي الى بيته، لم يجد زوجته، فدهمه الغضب، ووقف في غرفة النوم، ونظر الى مرآة الخزانة الخشبية ليرى رجلاً متجهم الوجه يشهر سكيناً ويلوّح بها وهو يتخيّل زوجته ترتعد وتنتحب وتتوسل إليه ألاّ يقتلها.

وظلّ غازي يحوص في أرجاء البيت بخطى قصيرة حانقة حتّى رأى زوجته تدخل البيت بملاءتها السوداء بادية الإعياء، فسألها بنزق: «نوال.. أين كنت؟».

فجلست نوال على إحدى الأرائك وهي تقول لغازي: «دعني أوّلاً أستريح قليلاً قبل أن تسألني».

قال غازي: «جاوبي حالاً. أين كنت؟».

ابتسمت نوال، وقالت: «أين سأكون؟ تجولت في الأسواق حتّى تعبت واشتريت ما خفّ وزنه وغلا ثمنه».

قال غازي بصوت غاضب: «أنا أموت في العمل كلّ يوم سبعين ميتة، وأنت لا عمل لك سوى إنفاق النقود كأنّي أجدها مرمية في الطريق».

قالت نوال وهي تضحك: «انتظر ولا تصح وتجمع الجيران

بصياحك. ألا ترى يديّ فارغتين ولم أشتر شيئاً؟».

قال غازي بإلحاح: «أين كنت؟».

قالت نوال: «نسيت أنّك لا تطيق المزاح ولا تستسيغه. ألم تطلب إليّ في الصباح أن أزور أمّك وأبقى عندها طوال النهار؟».

فهدأ غضبه حين تذكّر أنّه أمرها بزيارة أمّه، وسألها: «وكيف أحوال أمّي؟».

قالت نوال وهي تخلع ملاءتها السوداء عن جسدها الممتلئ الفتيّ: «بخير، وعاتبة عليك لأنّك لم تزرها منذ شهر».

قال غازي: «ألم تخبريها أنّي غارق في العمل حتّى أذنيّ؟».

قالت نوال: «اطمئن. أخبرتها أن عملك كثير جداً إلى حد أنّك لا تأتي إلى البيت إلاّ في آخر الليل تسندك الحيطان، ولم أتركها إلاّ بعد أن رضيت عليك ودعت لك بالتوفيق أينما اتجهت».

وعرض غازي السكين على نوال قائلاً لها بصوت متباه: «انظري ماذا اشتريت اليوم؟ سكيناً لا مثيل لها وبأرخص سعر. انظري إليها. ما أغربها! كأنّها ذبحت مئة شخص».

قالت نوال: «ليتك اشتريت ما ينفع البيت. عندنا في المطبخ سكاكين كثيرة لتقطيع البصل والبطاطا».

فقال غازي بثقة: «هذه سكين مختلفة».

وطالبها بإلحاح أن تتخلى عن خوفها وتمسك السكين، فأطاعته بعد تردد، وما إن التفّت أصابع يدها اليمنى حول مقبضها حتى اجتاحتها قوة لم تعرفها من قبل، وبدا لها زوجها قميئاً كريهاً على الرغم من أنّ رأسه يوشك أن يمسّ السقف.

ولوّحت نوال بالسكين مهددة زوجها بحركات مازحة، فقال لها

محذّراً: «انتبهي. السكين حادة جدّاً».

فلم تبال بتحذيره، وتابعت تهديدها له وهي تتضاحك وتتساءل: «من أنا؟ قل لي من أنا؟».

قال غازي: «أنت زوجتي».

فضحكت نوال ضحكة ساخرة، وقالت: «الحمد لله لأنّك تذكّرت أنّي زوجتك ولست خادمتك».

قال غازي: «كلّ زوجة تخدم زوجها».

فأهوت نوال بالسكين على غازي الذي زاغ عنها، وحاول أن يمسك بها كي ينتزع السكين، فبوغت بقوتها، وطعنته الطعنة الأولى في الجانب الأيسر من صدره، وأجبرته على الابتعاد عنها، فصاح بها غاضباً مؤنباً متوعداً، فطعنته الطعنة الثانية وبأقصى ما تملك من قوة حتّى تسكت صياحه الغاضب الآمر الذي لم يتوقف منذ أن تزوجا.

وحاول غازي جهده ألاّ يترنّح، ولكنّه اضطر إلى التهاوي على الأرض وهو يشتم زوجته التي كانت تنظر إليه بهدوء وتشف ومرح، ولم يستمر في شتائمه، وتحشرج صوته واختفى، فدنت منه متأهبة لأن تطعنه الطعنة الثالثة، فوجدته مغمض العينين ينتفض بين الحين والحين، فجثت قربه على ركبتيها، ووضعت نصل السكين على عنقه، وضغطت عليه بكلّ ثقلها، فاخترق العنق فاصلاً الرأس عن الجسم.

وسارت نوال إلى المطبخ بخطوات متئدة، وغسلت يديها والسكين بالماء الساخن والصابون، وجففت السكين بمنشفة بيضاء نظيفة، وخبأتها في درج من أدراج الخزانة الخشبية مع ثيابها الداخلية، وارتدت ملاءتها، وخرجت إلى الشرفة تستنشق الهواء النقيّ وتطلق

الولاويل المستغيثة، فقد عادت إلى البيت لتباغت بزوجها مقتولاً. وولولت نوال بصوت أقوى وأشرس حين تذكّرت أنّها ستضطر طوال أشهر إلى ارتداء الثياب السود التي تبغضها.

١٠

المؤذن لا يؤذّن

حان موعد أذان العصر، ولكنّ المؤذن لم يؤذّن، فكظم شيخ المسجد غيظه، وسأل عن المؤذن، فقيل له إنّه صعد المئذنة، ويقف متأملاً ما تحته من شوارع وطرقات وأبنية وبيوت ودكاكين، فسأل شيخ المسجد عمّا به، فقيل له إنّه بخير، ولكنّه صامت لا يؤذّن، فأسف شيخ المسجد لأنّ من اختار المؤذن لأداء هذا العمل الجليل اختبر قوة صوته وحسن إلقائه ولم يختبر تقواه وطاعته لربّه.

حان موعد الأذان، ولم يؤذّن المؤذن غير مبال بالضوضاء الغاضبة الصاعدة من تحت، فصحته تسوء، وصعود المئذنة خمس مرات كلّ يوم يرهقه، وصوته يضعف ويبحّ ويخشوشن ويغدو كالعويل المخنوق، ولا ينصت لتحذيرات الأطباء من أضرار الاستمرار في تدخين السجائر، ولا يتخلى عن عناده بأن يلقى وجه ربّه والسيجارة بين شفتيه، وزوجته تشاجر معها قبل أشهر، ولطمها لطمتين، وطردها من البيت كأنّها حذاء عتيق، فذهبت إلى بيت أهلها، وأصرّت على البقاء فيه إلاّ إذا أتى إليها واعتذر واسترضاها

ووعدها بالتبدّل والمعاملة الحسنة، وراتبه ضئيل، وليس عنده ما يكفي من المال حتّى يتزوّج غيرها أصغر منّها وأجمل، ويحرق قلبها، وابنه الوحيد لاخلّ ولا نبيذ، لا يصلح للدراسة ولا للعمل، وصوته من أنكر الأصوات، ولا يعود إلى البيت إلاّ في آخر الليل. حان موعد الأذان، ولم يستطع المؤذن أن يؤذّن، وتقاليد العمل لا تسمح له بالبوح بما يعاني بصوت عال في أذان جديد غير مألوف.

١١

السارق والمسروق

أخلى المطر والبرد والريح والليل الشارع من المارّة، ولكنّ ثمة رجلاً لم يكترث لهم، واستمر في سيره المترنح المتمهل، وراقب البيوت بيتاً بيتاً، واختار أحدها، وانتظر قربه حتّى أطفئت كلّ أنواره، وانتظر انتظاراً آخر قدّر أنّه كاف لأن يغرق سكان البيت في النوم العميق، ثم تسلل إلى داخل البيت هازئاً بكلّ الأبواب المقفلة، وحريصاً على العمل بما كان يردده دائماً بتباه: «أدخل كالنسيم وأخرج كالنسيم».

وجال الرجل في غرف البيت متجنباً الغرف التي يظنّ أنّها غرف نوم باحثاً بهدوء عمّا غلا ثمنه وخفّ وزنه، وكبت شهقة تعجب عندما تنبه بغتة لصورة فوتوغرافية معلّقة على الحائط لرجل ضخم الرأس ذي وجه صلف متعجرف، وضحك بصوت عال ساخر غير آبه لسكان البيت إذْ علم في تلك اللحظة أنّه كان يحاول سرقة بيته، وجلس على أحد المقاعد مكتئباً كآبة لاسبب لها إلاّ تيقنه بأنّ يوم تقاعده لم يعد بالبعيد.

١٢

منتصف الليل

خرج في منتصف الليل من إحدى الحانات أَخَوان يترنحان سكرانين، فقال الأخ الأكبر سنّاً للأخ الأصغر سنّاً: «ألا تستحي من أن تقول عنّي إنّي إمرأة؟».

فقال الأخ الأصغر سنّاً: «لا أذمّك حين أقول إنّك إمرأة، فالمرأة تحبل وتنجب الأبناء وتربيهم، ولولاها لانقرض البشر، ولو وزنوا الرجال والنساء لتبين أنّك لست إمرأة بل ربع رجل».

فاستل الأخ الأكبر سنّاً خنجراً، ولوّح به مهدداً، وسأل أخاه: «من ربع رجل؟».

فضحك الأخ الأصغر سنّاً، وقال لأخيه: «لا أحد غيرك. أتريد مني أن أغضب ربّي وأكذب؟».

فأهوى الأخ بالخنجر على صدر أخيه الذي صرخ متوجعاً، وقال بصوت ساخر: «يا أعمى.. القلب في الجهة اليسرى لا في الجهة اليمنى. لا فائدة. ستظلّ حماراً وأقلّ من ربع رجل».

فانقضّ الخنجر ثانية على الجانب الأيسر من الصدر في طعنة عنيفة أرغمت الأخ المضروب على السقوط أرضاً بينما هرب الأخ

الضارب عائداً إلى بيته ليجد أمّه ساهرة تنتظر كعادتها عودة أبنائها، فسألها: «أأنا رجل أم امرأة؟».

فقالت له أمّه: «أنت رجل وسيّد الرجال».

فقال لها: «قولي هذا الكلام لمن قال إنّي امرأة ودفع الثمن».

وأخرج من جيبه الخنجر ملطّخاً بالدم، وعرضه عليها بحركة متباهية، فشهقت فزعة، ولم تر ابنها قاتلاً، ورأته مقتولاً.

١٣

المتنكر

كانت كوثر فتاة في العشرين من عمرها، شعرها أسود، ووجهها ناصع البياض، نحيل، تزيد من نحوله عيناها الكبيرتان السوداوان، وقد ضغطت بإصبعها زرّ جرس الباب، وانتظرت لحظات ليفتح الباب ولد هزيل في الثامنة من عمره، أشقر الشعر، نظر إليها باستغراب لا يخلو من إعجاب، فقالت له: «أريد مصطفى».

قال الولد: «أنا مصطفى».

قالت كوثر: «أريد مصطفى الأمير».

قال مصطفى: «أنا مصطفى الأمير».

فقالت كوثر وهي تضع يدها على بطنها: «أنت لست مصطفى الأمير. مصطفى رجل طويل عريض، وهو أب طفلي الذي سيصبح عمره شهرين بعد يومين».

قال مصطفى: «أأنت زوجته؟».

قالت كوثر: «سنتزوج قريباً كما وعدني في آخر مرة رأيته فيها، فهو يحبني وأنا أحبّه».

قال مصطفى: «وأين التقيته آخر مرة؟».

قالت كوثر: «هنا.. في هذا البيت، وإذا لم تصدقني، وصفتُ لك البيت. غرفة النوم واسعة لها نافذتان».

قال مصطفى: «كلّ غرف النوم لها نوافذ».

قالت كوثر: «وفي غرفة النوم سرير عريض جدّاً ومريح».

قال مصطفى: «كلّ غرفة من غرف النوم لا تسمى غرفة نوم إلاّ إذا كانت تحوي سريراً».

قالت كوثر: «من يسكن في هذا البيت؟».

قال مصطفى: «أمّي وأنا فقط. أبي يرحمه الله مات قبل سنة».

قالت كوثر: «وأين أمّك؟».

قال مصطفى: «مريضة في المستشفى».

قالت كوثر: «كفّ عن المزاح وادخل وناد مصطفى».

قال مصطفى: «أنا مصطفى.. مصطفى الأمير. هل أريك شهادة ميلادي لأثبت لك أنّي لا أمزح؟».

فوجمت كوثر، ولم تنطق بكلمة، فقال لها مصطفى: «أنا مصطفى الأمير، وأنا في سنّ لا تسمح لي بالزواج. اعذريني لأنّي مضطر إلى إغلاق الباب لأنّي تأخرت في الذهاب إلى أمّي في المستشفى».

وأغلق مصطفى الباب، وهرع إلى المرآة، ونظر إليها بفضول، فأبصر ولداً هزيلاً في الثامنة من عمره ذا عينين وديعتين، فابتسم بفرح معجباً ببراعته في التنكر.

١٤

المشجب

دخل موفق العاني إلى المستشفى، فجعلته جدرانها البيض يكتئب كأنّ لونها أسود، وسأل موظفة في قسم الاستعلامات عن صديقه المريض جمال بيدس الذي يرغب في زيارته، فنظرت إلى دفتر كبير مفتوح، وقالت له وهي تحملق إليه بعينين كبيرتين ماكرتين: «كم ستدفع إذا أخبرتك برقم غرفته؟».

قال موفق العاني: «سأدفع ما تشائين».

فقالت الموظفة: «ما دمت كريماً إلى هذا الحد، فسأخبرك برقم غرفته مجاناً. ستجده في الطابق الثاني.. الغرفة رقم ١٧».

وهمّ موفق العاني بالمسير، فاستوقفته الموظفة متسائلة: «وكم ستدفع إذا أخبرتك برقم غرفتي في الليل؟».

قال موفق العاني: «لست مليونيراً».

فقالت الموظفة وهي تضحك: «عدْ بعد أن تزور صديقك، وسنتفق ولن نختلف».

فصعد موفق العاني الدرج إلى الطابق الثاني، وسار في دهاليز

عريضة، كثيرة الغرف، وكلّ غرفة لها باب مطلي بلون أبيض، ثبت به رقم معدني.

وعثر موفق العاني على الغرفة رقم ١٧، ففتح بابها، ودخل إليها، فرأى ثلاثة رجال ذوي ثياب بيض يتزاحمون على امرأة مستلقية على ظهرها تضحك وتنصح الرجال بالقليل من الصبر والتقيّد بالنظام، فبهت موفق العاني، وتجمد في مكانه مفتوح الفم، فتنبه إليه أحد الرجال، ودنا منه متجهم الوجه، وسأله بصوت فظّ: «ماذا تريد؟».

فتزايد ارتباك موفق العاني، وقال متسائلاً: «أهنا الغرفة رقم ١٧؟».

قال الرجل: «هذه الغرفة خاصة بالأطباء، رقمها ٣٧ وليس ١٧، فكيف لم تره؟ أأنت أعمى؟».

فتمتم موفق العاني بكلمات الاعتذار، وغادر الغرفة، وعاود السير في الدهاليز العريضة باحثاً عن الغرفة رقم ١٧، ولمّا وجدها لم يبادر إلى فتح بابها إلاّ بعد أن تأكّد مراراً من صحة الرقم.

وما إن دخل موفق العاني الغرفة رقم ١٧ حتّى رأى صديقه جمال بيدس متمدداً على سرير ضيق، فصافحه بحرارة، وسأله عن أحواله الصحية، فقال جمال: «أحوالي الصحية ممتازة، ولكنّي أحياناً أعاني بعض المتاعب بسبب عقلي، فأخلعه وأعلّقه هناك».

وأشار جمال إلى مشجب خشبيّ مثبت بالحائط، ثم أردف قائلاً: «وحين أرتاح وأشبع راحة أعيد عقلي إلى مكانه».

فقال موفق: «بلا مزح! هل العقل جورب تلبسه متى تشاء وتخلعه متى تشاء؟!».

قال جمال: «أنا لا أمزح، وأنت حرّ في أن تصدق كلامي أو لا

تصدقه، ولكنّي أروي لك بصدق ما أفعل كلّ يوم، ففي ساعات الصباح يحلو لي أن أخلع عقلي وأعلّقه هناك على المشجب».

فقال موفق وهو يضحك: «وعقلك الآن؟ أهو في رأسك أم معلّق على المشجب؟».

قال جمال: «ما هذا السؤال؟ ألا تراه؟ انظر إليه تره معلّقاً على المشجب».

فنظر موفق إلى المشجب، وقال لجمال: «لا أرى أيّ شيء معلّقاً على المشجب».

فقال جمال بصوت هازىء: «ألا تعرف أنّ العقل لا يُرى؟ وإذا كان العقل لا يُرى، فكيف تريد أن تراه؟».

فلم ينطق موفق العاني بكلمة، وظلّ ساكتاً، فقال له جمال بيدس: «لن تخسر شيئاً إذا حاولت تقليدي. جرّب مرة ولن تندم».

وظلّ جمال بيدس يتحدث عن فوائد اكتشافه حتّى نعس موفق العاني، فودع صديقه، وغادر المستشفى من غير أن تتنبه له موظفة الاستعلامات التي كانت منهمكة في التحدث إلى زميلة لها، وسار بسرعة في الشوارع الموصلة إلى بيته، فاسترعى انتباهه ضجيج رجال يتزاحمون لرؤية ما يتحلقون حوله، فاندسّ بينهم، فإذا هم يتفرجون على شابّ يغتصب امرأة ألقاها على الأرض، والمرأة تبكي وتولول وتستغيث فلا يأبه لها أحد، وتحدّق إليها العيون كأنّها تتابع أحداث فيلم سينمائي مشوّق، فهرول موفق العاني عائداً إلى بيته، وما إن استلقى على سريره لاهثاً حتّى صار الشابُّ الذي يغتصب المرأة غير مكترث لتوسلاتها، وصار المرأة التي تُغتصب وتطلق صيحات الاستغاثة غير المجديّة، وصار العيون المحملقة بتشفّ إلى الرجل المغتصِب والمرأة المغتصَبة، وشعر بأنّ ما كان في داخل رأسه

ويعتز به قد انسحب انسحاب الشوك من اللحم، ولم يجد مشجباً، وارتمى في سلّة مهملات ملأى بالجرائد الممزقة وأعقاب السجائر، فلم يحاول استعادته، وأغمض عينيه مستمتعاً براحة لم يعرفها من قبل، وفاقداً القدرة على أن يفكر ويحسّ ويغضب ويخجل، وناسياً الكتب التي قرأها والأفلام السينمائية التي شاهدها والأغاني التي استمع لها والمدن التي زارها والشوارع التي تسكع على أرصفتها والحفر التي وقع فيها والأمطار التي بللته والغيوم التي حلقت فوقه والمقاهي التي جلس فيها والطيور التي حلم بمطاردتها، وناسياً كلّ الأصدقاء وضحكات الأطفال والنساء ووجه أبيه ووجه أمّه ووجوه إخوته.

وما حدث لموفق العاني لم يبال به، ولكنّه كان واثقاً بأنه سيعاود في يوم قريب زيارة صديقه في المستشفى ليسخر من المشاجب منوّهاً بسلات المهملات وفوائدها.

١٥

العروس

تلاقى رجل وامرأة مصادفة في سهرة في بيت أحد الأصدقاء، فبهرت المرأةُ الرجلَ بشخصيتها وحديثها واعتدادها بنفسها. ها هي ذي المرأة التي كان يبحث عنها، والجديرة بأن تكون أمّ أبنائه الذين سيأتون.. أبناء يَقتِلون ولا يُقتَلون، ويخلّفون أحفاداً وارثين أمناء.

وفي ختام السهرة، خرج الرجل والمرأة معاً من البيت، وسارا على مهل في شارع صامت، وحدّثها الرجل عن الحبّ والزواج والبيت السعيد، فقالت له المرأة: «ما هذا التخريف عن الحبّ والزواج؟ أهو وسيلة لتضاجعني مجّاناً؟ أنا لست امرأة تُخدع بسهولة. الأمور واضحة كالشمس. اللقاء في بيتي له سعر غير قابل للمساومة، واللقاء في بيتك له سعر أقلّ إذا كان البيت آمناً».

فبهت الرجل، وهوى في فضاء سحيق بغير أن يرتطم بأرض.

١٦

المتواري عن الأنظار

دخل المعلّم سمير جعجع إلى غرفة مدير المدرسة بخطى مترددة، وقال للمدير الجالس وراء طاولته عابس الوجه: «صباح الخير. قيل لي على باب المدرسة إنّك تريد مقابلتي».

فقال المدير بصوت غاضب: «بصراحة يا أستاذ، أنا مللت من تأخرك كلّ يوم».

قال سمير جعجع: «ماذا أفعل؟ حظي قليل، ففي كلّ صباح أصادف ما يسبب تأخري. البارحة رأيت طفلاً يغرق في البحر، فوثبت إلى الماء وأنا بثيابي وأنقذته، واليوم رأيت امرأة عجوزاً توشك السيّارات أن تدعسها، فأمسكت يدها، وسرت معها حتّى أوصلتها سالمة إلى بيتها».

فقال المدير بحنق: «أف! كفى أعذاراً، ولا تتأخر عن المدرسة حتّى إذا عادت أمّك من قبرها. هيّا اذهب الآن وبسرعة إلى صفّك، فالتلاميذ وحدهم ويوشكون أن يخربوا الصفّ».

فغادر سمير جعجع غرفة المدير بخطوات متعجلة، وقصد الصفّ

الذي كانت تتصاعد منه صيحات التلاميذ الصغار، وما إن دخل إلى الصفّ حتّى عمّ سكون مباغت، وصاح أحد التلاميذ بصوت آمر: «وقوف».

فوقف التلاميذ كأنّهم تلميذ واحد، وتمشّى سمير جعجع في أرجاء الصفّ على مهل متفحّصاً التلاميذ بوجه متجهم، ثم قال: «جلوس».

فبادر التلاميذ إلى الجلوس، فقال سمير جعجع لهم: «علّمتكم في الأيام الماضية كيف تكتبون حرف الألف وحرف الباء وحرف التاء وحرف الثاء وكيف تنطقون هذه الأحرف، واليوم ستتعرفون إلى حرف جديد جميل هو حرف الجيم..».

ولم يكمل سمير جعجع كلامه، ونظر بدهشة إلى رجال شرطة اقتحموا الصفّ وهم يشهرون المسدسات والبنادق ويصيحون آمرين بألاّ يتحرك أحد، وانقضوا على سمير جعجع، وقبضوا عليه، واقتادوه إلى سيّارة تقف خارج المدرسة، وأركبوه فيها، وأخذوه إلى حيث حقق معه واتهم بأنّه اغتال عدداً من الناس وفجّر بنايات وسيارات، فاستنكر ما سمع، وأنكر كلّ ما اتهم به، ولكنّ إنكاره لم يؤبه له، واقتيد بعد أيام إلى إحدى المحاكم، فطلب في بداية الجلسة من رئيس المحكمة أن يسمح له بقول بعض الكلمات، فأذن له رئيس المحكمة بالكلام، فأسهب سمير جعجع في وصف الأحوال السيئة السائدة في السجن الذي أوقف فيه، وكان وصفه بليغاً أوشك أن يُرغم عيني رئيس المحكمة على أن تذرفا الدموع.

قال رئيس المحكمة لسمير جعجع بصوت وقور متهدج: «أين تفضّل أن تسجن؟ في فندق الريفييرا أم في فندق السمرلاند؟ أنا أنصحك

بفندق الريفييرا، فقد زرته بعد أن أصلح وجدّد، ووجدته رائعاً خاصة وأنّه يطلّ على البحر».

قال سمير جعجع: «لن أخالف ما اقترحه عليّ القضاء النزيه، ولكنّي أريد غرفة لا تطلّ على البحر».

قال رئيس المحكمة: «غريب! كلّ الناس يحبّون البحر».

قال سمير جعجع: «أنا الآن لا أحبّ البحر لأنّه يذكّرني بأنّي مسجون محروم من حريته».

فقال ممثل الادعاء لرئيس المحكمة: «المتهم لا يكره البحر إلاّ لأنّه يذكّره بالدماء التي سفكها».

قال رئيس المحكمة لسمير جعجع: «أتعترف بصحّة التّهم المنسوبة إليك؟».

قال سمير جعجع: «أنا بريء».

فقال رئيس المحكمة لممثل الادعاء: «أين أدلتك التي تثبت أنّ المتهم مذنب؟».

قال ممثل الادعاء: «أدلتي لا تدحض. الأشخاص الذين قتلهم المتهم هم الذين سيتكلّمون أمام القضاة أعضاء المحكمة، وللمحكمة بعد ذلك أن تقرر ما إذا كان المتهم بريئاً أم مذنباً».

فصاح سمير جعجع: «ما هذه المهزلة؟ أشخاص مقتولون ويُزعم أنّهم سيحضرون ويتكلّمون؟! هذا شيء لا يصدق ومهزلة ما بعدها مهزلة».

ودخلت إلى قاعة المحكمة مجموعة كبيرة من الموتى المتلفعين بالأكفان البيض، وتكلّم الميت الأول، وقال وهو يشير إلى سمير جعجع بسبابة مرتعشة: «هذا الرجل هو نفسه الذي طعنني بالخنجر

ممزقاً قلبي شرّ تمزيق بينما كنت أقود سيارتي وأطيع قوانين السير وأتوقف عند الشارة الضوئية عندما تصير حمراء».

فقال سمير جعجع: «أنا لا أعرف هذا الرجل وهو لا يعرفني، فلماذا أقتله؟».

وتكلّم الميت الثاني، وقال وهو يحدّق إلى سمير جعجع تحديقاً مفعماً بالكره: «هذا الرجل أطلق عليّ النار لأنّه اشترى مسدساً جديداً ويتدرب على استعماله».

فقال سمير جعجع: «هذه شهادة تقطر كذباً، فمن أين لي المال لشراء مسدس وراتبي كمعلم مدرسة لا يكفي لإيجار غرفتي وشراء الضروري من الطعام؟».

وتكلّم الميت الثالث، وقال: «كان النهار بديعاً، فاتفقت مع زوجتي على أنّ الجوّ صالح للغداء في حديقة بيتنا، وبينما كنت منهمكاً في إعداد النار التي سيشوى اللحم عليها، هاجمني هذا المسمى بسمير جعجع، وأطلق عليّ النار وقتلني، ودمائي أطفأت النار التي كان اللحم سيشوى عليها».

فقال سمير جعجع: «ما هذا الهذيان والتخريف؟ يدي طوال حياتي لم تمسّ مسدساً، ولم أر المسدسات إلاّ على شاشة التلفزيون وفي الصور التي تنشرها الجرائد والمجلات».

وتكلّم الميت الرابع، وقال: «كنت صاحب مخازن تجارية لا مثيل لها في البلد، ورفضت أن أدفع للمتهم الأتاوة التي فرضها عليّ، فما كان منه إلاّ أن فجّر مخازني فوق رأسي، ودفنت تحت الأنقاض».

فقال سمير جعجع: «هراء! أنا مجرد معلم أدرّس الصغار في الصفّ الأول الابتدائي و لا علاقة لي بالتجّار والتجارة».

وتكلّم الميت الخامس، وقال: «كنّا زوجتي وأنا نتسكع ليلاً في أحد الشوارع مستمتعين بهواء الربيع لحظة طوقني سمير جعجع ورجاله، واغتصبوا زوجتي أمام عينيّ، وأجبروها على التأوه كأنّها راضية ترحب بهم، وشنقوني، وتدلى جسمي من أحد أعمدة الكهرباء كأنّه كيس فارغ من القماش».

فقال سمير جعجع: «سمعت في حياتي كثيراً من الكذب، ولكنّي لم أسمع كذباً يفوق هذا الكذب الوقح».

وتكلّم الميت السادس، وقال: «أمسكني سمير جعجع، وصبّ عليّ البنزين، وأحرقني حيّاً».

فقال سمير جعجع: «أنا أقلعت عن تدخين السجائر بسبب كراهيتي لإشعال السجائر بأعواد الثقاب التي لا أحتمل رؤية نارها».

وتكلّم الميت السابع، وقال: «حاول المتهم إقناعي بأنّ العدوّ في بعض الأحيان هو خير صديق، فاستنكرت محاولته، وبقيت مؤمناً بأنّ العدوّ هو عدوّ في كلّ الأوقات، فوثب أتباعه عليّ، وأوثقوني بالحبال ثم قطّعوا جسدي بالبلطات التي يقطّعون بها الخشب للمدافئ والأفران».

فقال سمير جعجع: «من المخزي أن تقال عليّ مثل هذه الأقوال وأنا الذي أفنى عمره في تعليم الصغار وحضّهم على السير في الطريق القويم».

وتكلّم الميت الثامن، وقال: «قدم إليّ المتهم لائحة بالأسعار، وطلب إليّ أن أختار منصباً يتناسب مع أرصدتي في المصارف. الوزير له سعر، ومعاون الوزير له سعر، والمدير العام له سعر، والنيابة لها سعر، فقلت له إنّ الميدان السياسي ليس سوبر ماركت، وإنّ الشعب

سيمنحني ثقته وينتخبني ممثلاً له، فأمر المتهم بإغراقي في البحر، وأكلتني الأسماك».

فقال سمير جعجع: «أعوذ بالله من هذا الكلام الغبيّ الذي لا يصدر إلاّ عن أغبياء يأكلهم الحقد».

وتكلّم الميت التاسع، وقال: «ركبت سيارتي الفخمة الغالية الثمن، وما إن أدرت محركها حتّى انفجرت بسبب قنبلة وضعها فيها المدعو سمير جعجع، وتحطمت سيارتي، وأصبحت لا تباع إلاّ كحديد خردة وبسعر بخس، وتمزّق جسدي، وصارت أكبر قطعة منه أصغر من راحة اليد».

فصاح سمير جعجع: «ما هذا الكذب المفضوح؟ ها أنت سليم الجسم لا خدش فيك. من المؤكد أنّي سأفقد صوابي وأجنّ إذا ظللت مجبراً على الإنصات لهذه الأكاذيب المقرفة».

وفي تلك اللحظة، جحظت عيون الناس الجالسين في قاعة المحكمة دهشة ورعباً إذْ حدث أمر مباغت، فقد استحالت ذراعا سمير جعجع جناحين كبيرين، وابيضت ثيابه التي كانت سوداء اللون، وطار سمير جعجع في سماء قاعة المحكمة، وخرج من النافذة بعد أن حطم زجاجها، ولم يحاول العودة ليسمع الحكم الذي كان رئيس المحكمة ينوي تلاوته، وأخفق رجال الشرطة في الاهتداء إلى مخبئه، وظلّ متوارياً عن الأنظار.

أبو عدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

١٧

إحدى المدن

﴿١﴾ لمّا نمي إلينا أنّ جيوش العدوّ نجحت في تطويقنا، قال لنا قائدنا المحبّ للكلام الحماسي: «اليوم يوم القتال الشديد، فإمّا نقهر ونستشهد استشهاد الأبطال، وإمّا ننتصر وننجو ونعود إلى قومنا ممجدين، فالعدوّ يحاصرنا حصار العازم على إفنائنا تاركاً لانسحابنا طريقاً واحداً إلى البحر، لا نفع فيه لأننا لا نملك سفناً، والهاربون من العدوّ لا نجاة لهم وسيهلكون غرقاً... »، فلم ننتظر حتّى يكمل كلامه، وهرعنا إلى البحر، وضربناه بسيوفنا، فتحوّل ماؤه تحت أقدامنا الراكضة طريقاً معبّداً، وعدنا إلى مدينتنا سالمين، فاستقبلتنا النساء بالزغاريد، وتبارى كبار الشعراء في إلقاء القصائد المطوّلة التي ترحّب بنا وتمجد بطولاتنا وتضحياتنا، فلم نكترث لكلّ ما حولنا، وقصدنا الأسواق لنبيع فيها سيوفنا بعد مساومات طويلة احتاجت إلى ذكاء ودهاء وصبر لا ينفد. ﴿٢﴾ ولمّا نمي إلينا أنّ قائدنا عاد إلى المدينة ممزق الثياب، معفّراً بالتراب والرمال والغبار شاهراً بفخر سيفه الملطخ بما يشبه الدماء، سارعنا إلى استقباله بالولاويل، ورجمناه بالحجارة، فحاول الفرار، ولكنّ محاولته باءت بالإخفاق، وظلت

حجارتنا تطارده، ولم تتركه إلاّ بعد أن وثقت أنّه قد صار جثّة مشوهة تعجز أمّه عن التعرف إليها، ونلنا أوسمة الأبطال حماة البلاد، وتزينت بها صدورنا وظهورنا. ﴿٣﴾ ولمّا نمي إلى أهل المدينة أنّ جيوش العدوّ تعتزم غزوهم، بادروا الى الاحتماء بالمساجد قائلين بثقة إنّ لها ربّاً يحميها ويحميهم، فأرسل إليهم جبريل على عجل ليبلغهم أنّ خالقهم لا يعمل حارساً لديهم، ومهمته ليست حمايتهم وحماية ممتلكاتهم وأولادهم وزوجاتهم، فإذا أرادوا حقّاً النجاة من الهلاك، فليس لهم إلاّ أن يقاتلوا، فانتحبوا واشتكوا واحتجوا، وحاولوا إقناع جبريل بالقيام بانقلاب عسكري، ووعدوا بتأييد انقلابه بالمال اللازم شرط أن يدحر عدوهم ويخلصهم من الخطر المحدق بهم، ووعدوا أيضاً بعبادته والامتثال لكلّ أمر من أوامره، فلم يجاوب جبريل، واكتفى بالابتسام الغامض. ﴿٤﴾ ولمّا نمي إلى أهل المدينة أنّ جيوش العدوّ توشك أن تصل إليهم، صدرت بلاغات رسمية تندد بتلك الشائعة المغرضة، وكتب أحد الصحافيين الموثوقين مقالاً حماسياً هدد فيه كلّ طامع في البلاد بالويل والثبور وعظائم الأمور، ولو قرأه قادة جيوش العدوّ لأغمي عليهم من شدة الخوف، ولكنّهم كانوا رجالاً يجهلون اللغة العربية، ولم يترجم المقال إلى لغتهم. ﴿٥﴾ ولمّا نمي إلى أهل المدينة أنّ جيوش العدوّ تطوّقهم وتحاصرهم، سارعوا إلى ابتلاع كميات كبيرة من الحبوب المنوّمة المستوردة، وذبحوا وهم نيام، ومن نجا من الذبح لم يعلم أنّه حيّ وظلّ نائماً.

١٨

النفق

صدمت سيارة إسعاف مسرعة امرأة عجوزاً، وأصابتها ببعض الرضوض وكسر في ساقها اليمنى، فترجل رجال الإسعاف من سيارتهم، وأجروا للعجوز ما يعوزها من إسعافات أوّلية ثم حملوها إلى سيارتهم، ونقلوها إلى المستشفى، وهناك واجهت بشجاعة ما دهمها من أوجاع، ولكنّها كانت تضحك مغتبطة بين الحين والآخر كأنّها تتذكر فجأة ما يجبر على الضحك، فسألتها الممرضات عن سبب ضحكها، فضحكت، وقالت: «ما دام كلّ إنسان محكوماً عليه في حياته بأن تدعسه سيارة مرة واحدة أو أكثر، فمن حسن حظّي أن تدعسني سيارة إسعاف، ولا أبقى ساعات مرمية في الطريق أنتظر سيارة إسعاف».

وضحكت العجوز، وقالت للممرضات: «عندما دعستني سيارة الإسعاف، كنت ذاهبة لزيارة بيت ابني ناوية التشاجر مع زوجته التي لا أطيقها، وكان ابني سيزعل مني لأنّ زوجته ستسوّد أيّامه انتقاماً مني، فدعستني السيارة لتخلّصني وتخلّص ابني من مشاكل نحن بغنى عنها».

وضحكت العجوز، وقالت للممرضات: «وعندما دعستني السيارة، كنت أنوي أن أقلب الدنيا فوق رأس زوجي لأنّ الذكرى الخمسين لزواجنا مرّت البارحة ولم يتذكرها، وأعاتبه لأنّه وعدني ليلة زواجنا أنّه سيصبح مليونيراً، ولم يحقق وعده على الرغم من أننا نوشك أن نموت».

وتابعت العجوز ضحكها المغتبط، فابتسمت الممرضات، وتبادلن النظرات المقتنعة بأنّ الشتاء اختلط بالصيف لدى العجوز بسبب ما ابتلعت من الحبوب المخدرة.

ونُقلت العجوز إلى قاعة ملأى بأسرّة المريضات، فأغمضت عينيها (من سيعشّي زوجها المريض ويقدم إليه دواءه في الوقت المحدد ومن سيوقظه في الصباح ويقدم اليه فنجان القهوة؟)، فازداد إغماض عينيها، ولم تعد تسمع إلاّ الأنين.

تئنّ المريضات، يئنّ الأصحاء، يئن الشجر، يئنّ التراب، يئنّ العشب، تئنّ الجدران، تئن الشوارع، تئن الأرصفة، تئنّ الطيور، تئن الغيوم، يئنّ الماء في الأنهار، فتئنّ العجوز، وتكفّ عن الضحك بين الحين والآخر، وتستسلم لذلك الليل المخيّم على الأرض.. ليل ذي شمس وليل ذي قمر ونجوم.

١٩

الخصم الأخير

أُطلقت في السماء ألعاب ناريّة على الرغم من أن الليل لم يأت وما زالت شمس النهار مشرقة، وسارت فرقة موسيقية من الجنود تعزف الموسيقى الحماسيّة، يتبعها عدد كبير من الجنود المسلحين بالبنادق.

توقفت فجأة الفرقة الموسيقية عن السير وعزف موسيقاها، وتوقف الجنود المسلحون بالبنادق، وتجمّدوا في مكانهم في الساحة العامة حتّى سمعوا صيحة من قائدهم تأمرهم بالاستعداد، فسدد الجنود بنادقهم نحو رأس تمثال لرجل يمتطي حصاناً، وأطلقوا النار عليه، فأخطأوا هدفهم، وأصابوا رأس الحصان، وأطلقوا النار ثانية، فتحطمت قوائم الحصان، وأطلقوا النار ثالثة، فتناثر رأس الرجل شظايا صغيرة، واستأنفت فرقة الجنود الموسيقية سيرها يتبعها الجنود المسلحون محاولين الحفاظ على سيرهم المنتظم.

٢٠

العائلة المقدسة

نظرت نهلة بحنق إلى أبيها وأمّها اللذين كانا يتبادلان الحديث همساً، وقالت لهما: «ما هذه السهرة المملة؟ سأذهب إلى غرفتي إذا لم تشركاني في الحديث، ولا أقبل بأن تتجاهلا وجودي».

فقال الأب: «لا داعي إلى الحرد. إسمعي يا نهلة. نحن لسنا عائلة متحجرة الأفكار، رجعية، تجبر بناتها على الزواج ممن لا يرغبن فيه».

وقالت الأمّ: «أبوك يقول لك هذا الكلام لأنّه حريص على صالحك، وعلمنا اليوم أنّ جيراننا ينوون التقدم لخطبتك لابنهم مسلّم».

فقالت نهلة بهزء «منْ؟ مسلّم؟ لا سلّم الله عظمة من عظامه. جرّبته مرة وندمت».

فقال الأب للأمّ: «أكنت إذن تحاولين خداعي بمدحك له والقول عنه إنّه أكثر من ممتاز؟ صحيح أنّ هذا الزمان زمان الناس الذين لا يستحون، ومن المهين لعائلتنا الراقية أن يتقدم رجل طالباً الزواج من إحدى بناتها وهو بمثل هذه المواصفات المخزية».

فقالت الأمّ: «أرأيت يا رجل أيّة فضيحة كانت ستنزل على رؤوسنا لو لم تكن ابنتنا واعية؟».

قالت نهلة: «لن أتزوّج إلاّ من رجل غنيّ جدّاً وكريم جداً ووسيم جدّاً ونشيط جدّاً في النهار والليل».

قال الأب: «وماذا حدث لصديقك الأستاذ الجامعي؟».

قالت نهلة: «أستاذ في الأقوال، تلميذ في الأفعال، ونصحته بأن يعشق حائطاً لا امرأة».

قالت الأمّ: «تفو على هذا البليد! أنت ماشاء الله جميلة، والحائط نفسه يتحرك إذا رآك».

وأضافت الأمّ بلهجة متسائلة: «وصديقك الجزار ما أخباره؟».

قالت نهلة: «لا يزال صالحاً للاستعمال في أوقات الحاجة الضرورية فقط».

ونظرت نهلة إلى ساعة معصمها، وقالت وهي تنهض واقفة: «سأذهب إلى غرفتي لأستعد للسهرة».

قال الأب: «وأين ستكملين سهرتك؟».

قالت نهلة: «أنا مدعوّة إلى العشاء مع ثلاثة أصدقاء».

قال الأب: «أف! ثلاثة؟! ماذا ستفعلين بهم؟».

وقالت الأمّ: «أعانك الله عليهم. سيهلكونك».

فقالت نهلة: «والله لو كانوا عشرة رجال لما باليت بهم ولجعلتهم في آخر الليل مذلولين مهانين».

فنظر الأب إلى ابنته باعجاب، ونظرت الأمّ إلى ابنتها بحسد.

٢١

حملة نابليون الدمشقية

احتلّ نابليون بونابرت دمشق، واحتلّ قصرها الجمهوري، وجلس فيه ليستقبل أكابر دمشق الذين هرعوا إليه للترحيب به وتهنئته بسلامة الوصول، وشارك مفتي دمشق في برنامج إخباري يقدمه التلفزيون الفرنسي، وبدا جليلاً مهاباً رصيناً، وتكلّم بصوت متهدج خاشع، وقال إنّ الله سبحانه وتعالى أرسل نابليون بونابرت إلى عباده مصلحاً ونذيراً، وصرّح رئيس الغرفة التجارية بدمشق لمراسل وكالة رويتر بأنّ الحركة التجارية ما كان لها أن تزدهر هذا الازدهار العظيم إلاّ بفضل رعاية نابليون بونابرت لها وتوجيهاته.

وقد أُعجب نابليون بونابرت بدمشق، وطابت له الإقامة بها، فأرسل إلى باريس طائرة خاصة أحضرت له زوجته جوزفين التي كانت امرأة لعوباً لم تترك شاباً قويّاً من شبّان دمشق إلاّ وعرّفته على ما لم يكن يعرفه، يدخل إليها مرفوع الرأس واثقاً ويخرج مطأطئ الرأس مدحوراً.

وألّف نابليون بونابرت من زعران دمشق جيشاً أمره باحتلال الدنيا،

فسار جيش الزعران الدمشقي من بلد إلى بلد محققاً الانتصار تلو الانتصار، ولكنّه عندما وصل إلى موسكو استنزفت قواه النساء الروسيات والفودكا، فهُزم الهزيمة النكراء، ومنْ نجوا من الموت عادوا إلى دمشق أشبه بالأشباح، فحزن نابليون بونابرت حزناً شديداً بسبب ما حلّ بجيشه، وسئم زوجته الشائنة الأفعال، الكثيرة الفضائح، فطلّقها، وأمر بوضعها في مبغى، فهرع إليها رجال دمشق تواقين إلى الاطلاع على المنتوجات الفرنسية الذائعة الصيت، وخرجوا من غرفتها فارغي الجيوب يتلمظون معجبين بما ذاقوا مؤكّدين أنّ الشرق جاهل متخلّف والغرب متطور متمدن.

وسمع نابليون بونابرت عن شيخ يجترح ما يشبه المعجزات، فقصده، وسأله تخليصه من حزنه الذي يتفاقم ويزداد، فنصحه الشيخ بالمواظبة على التردد إلى حمامات الأسواق، وكانت تلك النصيحة مجدية إذْ أعجب نابليون بونابرت بتلك الحمامات التي أتاحت له وهو تحت أجساد المدلكين أن يتخيّل جيوشه تنجح في احتلال العالم بأسره.

وعاش نابليون بونابرت في دمشق حياة سعيدة، ولكنّ الحكومة الفرنسية أرسلت إليه منْ يختطفه ويعيده إلى بلاده ليظلّ طوال ما تبقى له من العمر يتنهد بأسى وأسف كلّما تذكّر دمشق ورجالها.

٢٢

الوارث

﴿١﴾ خرجت من البيت مرح العينين والخطى لأعود إليه بعد ساعات شاحب الوجه، زائغ النظرات، فسألتني جدتي العجوز عن سبب خوفي، فقلت لها: «كنت أسير في الشارع، فرأيت شاباً في مقتبل العمر تدعسه سيارة مسرعة ولا تقف، ورأيت أولاداً يبحثون في القمامة عمّا يصلح لأن يؤكل، ورأيت شرطياً يضرب رجلاً يولول».

فأعطتني جدتي طاسة نحاسية مطلّية بالقصدير، وقالت لي: «هذه الطاسة هديتي لك، كلّما ارتعبت املأها بالماء واشربه».

فقلت لها بصوت متحسّر: «ليتني كنت أملك مثل هذه الطاسة يوم خرجت من بطن أمي!».

فابتسمت جدتي، وقالت لي: «عندما كنت صبيّة كنت أملك طاسة أخرى من يملأها بالماء ويشرب منها، يشعر بأنّه أسعد الناس ويتخلّص من الهمّ والغمّ، ولا أدري كيف أضعتها».

ووجدت نفسي مضطراً إلى الشرب باستمرار من ماء الطاسة القادرة على دحر تأثير الرعب، ولم أتوقف عن الحلم بالعثور على

الطاسة الأخرى التي أضاعتها جدتي.

﴿٢﴾ أدخلني أبي إلى غرفته، وحرص على إغلاق بابها بإحكام، وعلّمني دعاءً أردده، فأحصل توّاً على كلّ ما أطلبه وأتمناه.

وحفظت الدعاء، ورددته كتجربة أولى، وطلبت أن يغرد الغراب وينعب البلبل، فغردت الغربان ونعبت البلابل.

ونظرت يوماً بإشفاق إلى أبي المريض، الطاعن في السنّ، ورددت الدعاء، وطلبت أن يرحل أبي إلى عالم لا رجعة منه، فنلت ما طلبته، وورثت عن أبي دكاكين وبيوتاً أعفاني إيجارها من عناء العمل متيحاً لي العيش الهادىء السعيد، ولكنّ الأحزان دهمتني وهيمنت عليّ يوم عشقت امرأة متزوجة من رجل غيور، و لم أجد مهرباً من أن أردد الدعاء وأطلب أن يهلك زوجها، فهلكت هي مع أنّي رددت الدعاء بصوت ضارع خاشع، وصغت مطلبي بعبارات موجزة، شديدة الوضوح.

ورددت الدعاء، وطلبت أن يموت رجل يظلم الناس كلّ يوم، فلم يمت الرجل إنما مات الكثيرون من المظلومين، وخلّفوا أيتاماً وأرامل وبؤساً مقيماً.

ورددت الدعاء في كلّ ليلة، وطلبت ألاّ تشرق الشمس، ولكنّ الشمس استمرت في الشروق كلّ صباح.

وبدا لي ما حدث أمراً غامضاً خطيراً يتطلب نشدان العون العاجل من أبي، فبادرت إلى ترديد الدعاء وأنا أسير في الشوارع كئيباً منكس الرأس، وطلبت في ختامه أن يرجع أبي إلى الحياة، وعدت إلى البيت، فوجدت أبي غاضباً يصيح مؤنّباً أمّي لأنّها أهملت شجيرات الورد ولم تروها بالماء الكافي، ويصيح مؤنّباً جدتي لأنّها تتكلّم باستمرار ولا تستريح لحظة، ويصيح مؤنّباً أخي لأنّه كسول

يحبّ النوم أكثر مما يحبّ العمل، ويصيح مؤنّباً أختي لأنّها ترتدي ثوباً قصيراً لا يستر الركبتين، ويصيح مؤنّباً قطّتي لأنّها لا تصيد أيّ فأر، وما إن لمحني أبي حتّى كفّ عن صياحه الغاضب المؤنّب، ودنا مني مقطب الوجه، وطلب إليّ أن أدفع له فوراً كلّ ما أخذته من إيجارات في أثناء غيابه، فرددت الدعاء بصوت خافت فزع، وطلبت ما صبوت إليه في تلك اللحظة، فظفرت به حالاً، وتوقعت أن يسارع أبي بعد أيام قليلة إلى ترديد الدعاء ويعيدني إلى الحياة، ولكنّه اكتفى بزيارة قبري في أيّام الأعياد.

٢٣

الممثلة

ـ : «استيقظي يا ليلى من نومك، فالثلج في الخارج ينهمر بغزارة».

فقالت ليلى له: «سأظلّ نائمة حتّى يأتي الليل».

ـ : «الثلج الذي تحبينه ينهمر بغزارة».

فقالت له وهيّ مغمضة العينين: «متى ستتعلم الكذب بإتقان؟ الثلج لا ينهمر في الصيف».

ـ : «مللت الجلوس وحدي».

فقالت ليلى متسائلة: «لماذا تراني ولا أراك؟».

ـ : «أتفضلين أن تريني ولا أراك؟».

ـ : «لماذا أسمع صوتك ولا يسمعه أحد غيري؟».

ـ : «سمعت هذا السؤال مليون مرة».

ـ : «أأنت شاب أم عجوز؟».

ـ : «شاب في مقتبل العمر حسب مقاييس العالم الذي أتيت منه».

ـ: «كم عمرك؟».

ـ : «لا أدري بالضبط. ربما ألف سنة».

ـ : «مسكين».

ـ : «وسأعيش أيضاً آلاف السنين».

: «لماذا تلتصق بي؟ بردان؟».

ـ : «الحقّ على السرير الضيق، وسأزداد التصاقاً بك إذا لم تتركي السرير».

فنهضت ليلى من سريرها، وذهبت إلى المطبخ، وصنعت قهوة، وحملتها إلى غرفة الجلوس، وقعدت على الأريكة تحتسي قهوتها على مهل.

ـ : «أنت جميلة في النهار وجميلة في الليل».

ورنّ جرس الهاتف، فرفعت السماعة بيد متكاسلة، فإذا أحد المخرجين يبلغها أنّه آت لزيارتها فوراً ليسمعها نبأ مهماً ساراً.

وأتى المخرج بعد دقائق، وتحدث إلى ليلى بفخر عن جهوده طوال أشهر، والتي تكللت بالنجاح في العثور على المسرحية المنشودة التي ستكون بطلتها بغير منافس، فقالت له ليلى: «قبل أن أجاوب بالقبول أو الرفض، يجب أن تحدثني قليلاً عن المسرحية».

قال المخرج: «ستظهرين في الفصل الأول مرتدية ثوباً أسود طويلاً يليق بالملكات، وتسيرين بخطى بطيئة مرفوعة الرأس تغمرك الأضواء الحمر، فيتضاعف جنون المعجبين بك ويصفقون لك تصفيقاً يحرم كلّ الممثلات النوم».

ـ : «اللون الأسود يتناسب مع بشرتك البيضاء، ويزيد من بهائك».

قال المخرج: «وفي الفصل الثاني سترتدين ثوباً أخضر يكشف القليل من مفاتنك ويجعلك عرضة للاتهام بالبخل».

ـ : «اللون الأخضر جميل ويتلاءم مع شعرك الأسود».

قال المخرج: «وفي الفصل الثالث سترتدين ثوب سباحة أصغر حجماً من اليد، وتمشين عارية القدمين على شاطىء البحر، فلا يبقى رجل متزوج جالس في صالة المسرح إلاّ ويبصق على زوجته ويطلقها نادماً على عمر ضاع معظمه في أكل القمامة».

: ـ «سيغمى عليّ بالتأكيد لحظة أراك بثوب السباحة».

وقالت ليلى وهي تودع المخرج عند باب البيت: «أعجبتني المسرحية، وأنا موافقة على الاشتراك بها».

فقال المخرج لها وهو يربت بيده كتفها: «سأتصل بك هاتفياً حين يتحدد موعد التمارين».

وحاولت ليلى أن تتصل هاتفياً بعدد من صديقاتها، فلم تجد أيّة واحدة منهن، فاكتأبت.

ـ : «الله الله! الحزن والفرح يليقان بك، ولا يدري الناظر أيّهما الأجدر بمديحه».

فسألته ليلى: «ما رأيك في المسرحية؟».

ـ : «لم تسألي المخرج عن موضوعها».

قالت ليلى: «ماذا أفعل؟ نسي أن يتكلم عنه».

ـ : «ولم تسأليه عن اسمها».

قالت ليلى: «وهل توجد مسرحية بلا اسم؟ المسرحية لها اسم بالتأكيد، وليس من المعقول أن تقدّم مسرحية بلا اسم».

ـ : «ولم تسأليه عن أجرك».

قالت ليلى: «من المخجل أن أحدّثه عن الأمور المادية بينما هو يحدّثني عن الأمور الفنية».

ـ : «حين سأراك في ثوب السباحة، سأكون معذوراً إذا نسيت ما بيننا من صداقة وغازلتك غزلاً غير مؤدب».

فضحكت ليلى، ومات كلّ الرجال، وسارت في جنازاتهم وهي ترتدي ثوب سباحة أصغر حجماً من اليد.

٢٤

كمائن العنكبوت

قال صاحب معمل النسيج لوكيله: «كم عاملاً يعمل لدينا؟».

قال الوكيل: «مئة عامل».

قال صاحب المعمل: «أتشاءم من رقم مئة، وأتفاءل برقم تسعة وتسعين».

قال الوكيل: «غداً سينقصون واحداً عتيقاً اهترأ وصار بطيئاً بعد وفاة ابنه».

قال صاحب المعمل بغضب: «ولماذا لم تسرحه فوراً؟».

قال الوكيل: «أنتظر الأوامر».

قال صاحب المعمل: «كلّ مقصّر تطرده، ولا تنتظر أوامر من أحد، فلسنا تكيّة وملجأ للعجزة».

وقال صاحب المعمل للمحاسب: «ما أرباحنا في هذا الشهر؟».

فذكر له المحاسب الأرباح، فقال صاحب المعمل: «أرباحنا لا بأس بها، ولكنّها تقلّ عما كنت أتوقع، فقدّر نفقات سفري إلى باريس

ومونت كارلو في الأسبوع المقبل، وخفّض أجور العمال حسب تلك النفقات».

قال المحاسب: «وماذا أفعل إذا احتج العمال؟».

قال صاحب المعمل: «قل لهم إنّهم لا يسافرون إلى بلدان الدنيا ولا يشترون هدايا في كلّ مناسبة».

وقال صاحب المعمل لزوجته: «سأشتري لك من باريس أفخر معطف فرو».

قالت الزوجة: «وماذا أفعل بمعطف الفرو في الصيف؟».

قال صاحب المعمل متسائلاً بدهشة: «ألديك معلومات سريّة تقول إنّ الشتاء لن يأتي هذا العام؟».

وقال صاحب المعمل لحلاقه: «أسعار الذهب اليوم انخفضت أم ارتفعت؟».

فضحك الحلاق، وقال: «من كان مثلي لا يسأل إلاّ عن أسعار الأمشاط والشفرات والمقصّات».

وقال صاحب المعمل لسائق سيارته الكهل: «كم ولداً لديك؟».

قال السائق: «ابن واحد ما زال صغيراً».

قال صاحب المعمل: «وماذا سيعمل حين يكبر؟».

قال السائق: «سيشرّفه أن يسوق سيارة ابنك».

فابتسم صاحب المعمل، وحين ترجّل من السيارة وسار بضع خطوات، أحسّ بالأرض مرحة، شديدة الصلابة تحت قدميه.

٢٥

الطوفان

﴿١﴾ حُذّر الناس من طوفان سيجتاحهم بعد دقائق، وليس في مطاراتهم أيّة طائرة، وليس في مرافئهم سوى سفينة واحدة هرعوا إليها رجالاً ونساءً وأطفالاً طالبين النجاة، ولكنّ مالك السفينة طلب من الذين يبغون الركوب في سفينته أجراً لا يستطيع أن يدفعه إلاّ من كان كثير المال، فتوسل الناس إليه مثلما يتوسلون إلى الله، فلم يأبه لهم، وازدرى استغاثات نسائهم ودموع أطفالهم، فغضبوا، وحاولوا أن يصعدوا بالقوة إلى السفينة، فتصدى لهم أعوان مالك السفينة، وضربوهم بالعصيّ الغليظة ضرباً يرغم على الصياح المستجير، ولم يركب في السفينة إلاّ ملاّك الأموال وزوجاتهم وأولادهم وخدمهم، فراقب الناس السفينة بأسف وأسى بينما هي تبتعد متمهلة ثم انتظروا الطوفان كأنّه منقذ، ولكنّه لم يأت، ورأى الناس السفينة تحطمها أمواج البحر الغاضب، فلم يشمتوا أو يفرحوا إنما شهقوا مرتاعين من بحر تحوّل فجأة مقبرة محاولاً أن يحبط ما خطط له الطوفان.

﴿٢﴾ صدّقنا بأنّ الطوفان آت، فهرعنا إلى جوف السفينة الموشكة

على الإبحار، وما إن أبحرت السفينة حتّى تلاشى خوفنا وقلقنا، وتنهدنا فرحين بنجاتنا، وتحلقنا حول بعض الركاب متسائلين عن وجهة السفينة.

قال الراكب الأوّل: «لا أعرف البلد الذي تقصده السفينة، ولكنّه سيكون بلداً الحياة فيه آمنة مريحة، أكل ونوم».

قال الراكب الثاني: «ما أعلمه هو أنّها سترسو أخيراً في ميناء تابع لبلاد من يعمل فيها شهراً يستطيع عمله أن يكفل له دخلاً يتيح له أن يستريح سنة».

قال الراكب الثالث: «أيّ بلد تقصده السفينة سيكون أفضل من البلد الذي كنت أحيا فيه».

قال الراكب الرابع: «لا أدري، ولا أحد يدري، ومن يدري سيقول إنّه لا يدري».

قال الراكب الخامس: «أنا لم أركب في هذه السفينة إلاّ لأنّ الركوب مجاني».

قال الراكب السادس: «أنا أحبّ النوم على هدير الأمواج، وهو يجلب لي فيضاً من المنامات السارة».

قال الراكب السابع: «رأيت الناس يتزاحمون على الركوب في السفينة، فزاحمت ونجحت في الركوب».

قال الراكب الثامن: «ما دامت السفينة تسير، فلن تظلّ تسير، ولا بدّ لها من أن تتوقف في ميناء من الموانىء».

قال الراكب التاسع: «تعوّدت ألاّ أسأل عن وجهة أيّة سفينة أركبها بل أسأل فقط عن مطعمها وما إذا كانت وجباته شهيّة ورخيصة وصحيّة».

قال الراكب العاشر: «لا فائدة في السؤال لأنّ السفينة ستتعرض لحادث غامض مروّع يؤدي إلى غرقها وعدم وصولها إلى أيّة أرض».

قال الراكب الحادي عشر: «لم أحاول أن أسأل أيّ سؤال، فكلّ سؤال يكشف عن فضول لا مسوّغ له ولا سيما وأنّ الأوان ليس أوان الفضول والأسئلة».

ولم نحاول أن نسأل الراكب الثاني عشر لأنّه كان من الواضح أنّه ركب في السفينة كي ينشل الركاب ويسطو على ما في جيوبهم.

ولمّا لم نتلق من الركاب أيّ جواب مقنع، فقد تنبهنا إلى أننا أهملنا أن نسأل من كان ينبغي لنا أن نسأله أوّلاً، وهو ربّان السفينة، ولكننا عندما قصدناه سائلين عنه اتضح لنا أنّ السفينة بغير ربّان، وأنّ رحلتنا ستزخر بالمفاجآت.

٢٦

خطى الوحيد

﴿١ ـ بعد اللعب﴾

كان صالح وإحسان ولدين مرحين يلعبان في الحارة، وخطر لهما أن يتعاركا ويقلدا مصارعين شاهداهما في برنامج تلفزيوني رياضي، فتمكن صالح من التغلب على إحسان، وطرحه أرضاً، وجثم فوقه متباهياً بأنّه أقوى منه.

ونهض إحسان واقفاً لا يستطيع كظم غيظه، ونفض ما علق بثيابه من تراب، وقال لصالح: «أبوك ليس كأبي. أبي يملك بنكاً، يملك سيارات، يملك بنايات ومزارع، فهل يملك أبوك مثل ما يملك أبي؟».

فقال صالح: «أبي يملك سطلاً ورثه عن أبيه. أبي يقول للسطل: أريد ذهباً، فيمتلئ السطل حالاً بالذهب، ويقول له: أريد فاكهة، فيمتلئ السطل فوراً بفاكهة متعددة الأنواع. أمّي تملك عصا، تأمرها بضرب مَنْ يغضبها، فتطيع العصا، وتظلّ تضرب حتى يولول المضروب مستغيثاً. أختي تملك قطّاً ينبئها بكلّ الأماكن السرية التي خبئت فيها الكنوز. أخي يملك سيّارة تسير في البرّ

والبحر والجوّ بلا وقود، فهل تملك عائلتك مثل ما تملك عائلتي؟».

فتحيّر إحسان، ولم يستطع الردّ بكلمة.

ولمّا ملّ صالح اللعب في الحارة، عاد إلى البيت، وقال لأمّه إنّه جائع، فقالت له متسائلة باستغراب: «ألم تأكل قبل يومين؟».

وطلبت إلى عصاها أن تضربه، فلم تتحرك العصا كأنّها ميتة.

وقال صالح لأبيه إنّه جائع، فضحك الأب، وطلب من السطل خبزاً أبيض ساخناً ولحماً طريّاً مشويّاً، فظلّ السطل فارغاً.

وقال صالح لأخته إنّه جائع، فطلبت الأخت إلى قطّها إرشادها إلى مكان قريب مملوء بالطعام المجاني، فلم يأبه القطّ لها كأنّه أصيب بغتة بالصمم.

وقال صالح لأخيه الكبير إنّه جائع، فقال له أخوه إنّ الطواف في العالم ينسي الجائع جوعه، وأركبه في سيارته التي مخرت البحار وسارت في المدن والقرى وطارت في الأجواء، فرأى صالح العالم بأسره ثم عاد الى البيت خاوي المعدة، فوجد أمّه تطبخ الحصى، فحمل صحنه، وجلس قربها منتظراً.

﴿٢ ـ الضائع﴾

كان صالح يحوص في باحة البيت محتاراً لا يدري ماذا يفعل، فطلبت إليه أمّه أن يذهب إلى غرفة أخته ويوقظها من نومها حتّى تساعدها في كنس باحة البيت، فأخبر أمّه أنّه حاول مراراً إيقاظ أخته من نومها، فلم تستيقظ وظلّت نائمة لا تتحرك، فبادرت الأمّ إلى الدخول إلى غرفة أخته، وسمعها تولول قائلة إنّ أخته ماتت، وخرجت من الغرفة وهي تجهش بالبكاء، وأمرته أن يذهب راكضاً إلى دكان أبيه وينبئه بأنّ ابنته ماتت، فغادر صالح البيت ليجد أنّ

أولاد الحارة يلعبون، بعضهم لصوص، وبعضهم الآخر رجال شرطة، فأعجبته اللعبة، وشارك فيها بحماسة، وأصبح لصّاً يشهر مسدساً، ويطلق النار على كلّ من يعترض طريقه.

ومرّ في الحارة أربعة متسولين مختلفي الأعمار، يرددون بأصوات عالية أناشيد تتضرع إلى الله وتحثّ الناس على البرّ والإحسان، فترك صالح الأولاد منهمكين في التصايح والتراكض، وانضم إلى المتسولين الأربعة، وسار معهم مردداً ما كانوا يرددونه من كلمات منغّمة، وتنبه بعد حين إلى أنّه صار في شوارع لا يعرفها ولم يسبق له أن رآها، فتوقف عن المسير بينما كان المتسولون الأربعة يبتعدون عنه، وتطلّع إلى ما حوله بنظرات خائفة مستغيثة ثم ركض من شارع إلى شارع بأقصى ما يملك من قوّة وهو يلهث، ورأى فجأة دكان أبيه على الرصيف المقابل، فألصق ظهره بجدار إحدى البنايات مغموراً بالفرح والطمأنينة، وتخيّل أمّه تولول وتبكي وتطلب إلى أخته أن تذهب راكضة إلى دكان أبيها لتعلمه أنّ ابنه ضاع، فيهرع الأب إلى مخافر الشرطة ويخبر رجالها بأنّ ابنه الصغير ضاع، ويعطيهم أوصافه، فيبحث رجال الشرطة عنه في كلّ مكان ولا يعثرون عليه، ويظلّ الضائع ضائعاً لا يدري أيّ طريق يوصل إلى بيته، ولكنّه حين يكبر ويعرف كلّ الشوارع سيرجع إلى بيته من غير مرشد لتستقبله أمّه بالزغاريد.

ولم يحاول صالح الانتقال إلى الرصيف الآخر حيث دكان أبيه، وظلّ ملتصق الظهر بالجدار.

﴿٣ ـ الولد المرح﴾

رغب صالح في مراجعة دروسه، فإذا كلّ ما لديه من كتب مدرسية قد امّحت كلماته وصار مجرد ورق أبيض، فرحب بما

حدث إذْ منحه الكثير من الورق الصالح لأن يكتب عليه، ولكنّه لم يكتب أيّة كلمة إنما صنع من الورق رجلاً، وطلب إليه أن يطوف في العالم ويعود إليه ليحدّثه عمّا رأى، فأبى الرجل الورقي، وقال لصالح: «لو كان العالم ممتلئاً بضباع من ورق لما خفت ولخرجت فوراً وبلا تردد».

فغضب صالح، وأشعل النار في الرجل وهو يقول بصوت خشن: «هذا جزاء من يعصي أمراً من أوامري».

وحملق صالح إلى حائط غرفته المهترئ الطلاء، فرأى ما يشبه بنتاً جالسة القرفصاء تنتحب، فسألها: «أتبكين لأنّك رسبت في الامتحانات المدرسية؟».

قالت البنت: «أنا أبكي لأنّ امّي قتلت وأبي قتل وأخي قتل وأختي قتلت وقطّتي قتلت».

فسألها صالح: «ومن قتلهم؟».

فتلاشت البنت فوراً، وبقي سؤاله بغير جواب.

ورأى صالح على الحائط المهترئ الطلاء حصاناً صغيراً يركض، فسأله: «لماذا تركض؟».

فقال الحصان الصغير: «أركض هارباً حتّى لا يقبض عليّ وأصير خادماً».

ففقد صالح مرحه، وابتدأ منذ ذلك اليوم بالتدرب على العدو السريع.

٢٧

أبناء النجّار

تزوّج بشير النجّار من سلوى البقّاش المعروفة بجمالها وسذاجتها ونفورها من الرجال، ومرّت سنتان من دون أن تحبل سلوى، فتكاثر القيل والقال حولهما، وزعمت جاراتها الفضوليّات أنّ علاقة سلوى بزوجها علاقة الأخت بأخيها، وقنع رجالهنّ بالابتسام المستهزىء.

وفي أحد الشهور، وجد بشير نفسه يصنع في أوقات فراغه تابوتاً من الخشب الناعم، فسألته سلوى: «ولماذا التابوت؟ ما زلنا شباباً».

فلم يجب بشير، واستمر في صنع التابوت، ولمّا أنجزه، طلب من سلوى أن تجرّبه، فنظرت إليه باستغراب ثم تمددت في التابوت ضاحكة، فسألها بشير: «ما رأيك؟».

قالت سلوى: «عظيم. مريح أكثر من سريرنا، ولو صنعته أعرض قليلاً لاتسع لاثنين».

قال بشير: «لماذا تتحدثين عن عرضه ولا تتحدثين عن عمقه؟».

قالت سلوى وهي تحاول التمطي في التابوت: «هيّا جرّب».

فبادر بشير إلى التمدد فوق سلوى المستلقية في التابوت، فقالت له

سلوى: «كلامك عن عمقه صحيح، ولوكان معنا الآن شخص ثالث لطلبنا منه أن يضع فوقنا غطاء التابوت حتى تكتمل التجربة».

فقال لها بشير: «إذا حبلتِ الآن أتى الأولاد لا يخافون الموت».

قالت سلوى: «الأولاد؟ أيّ أولاد؟!».

قال بشير: «أريد ثلاثة صبيان دفعة واحدة».

فضحكت سلوى، وقالت: «من جدّ وجد».

وما تكلّم عنه بشيرالنجار تحقق، وأنجبت زوجته سلوى بعد تسعة أشهر ثلاثة صبيان لم يعرفوا طوال حياتهم الخوف من الموت، ولكنّهم كانوا يرتجفون هلعاً ورغبة كلّما حملقوا إلى امرأة جميلة.

٢٨

بحر أخضر مجهول

طالب المعلّم تلاميذه بكتابة وصف مطوّل لبستان في فصل الربيع، فتحيّر التلاميذ، وتذمّروا، وتساءل أشجعهم بصوت عال: «كيف لنا أن نكتب عمّا لا نعرف؟».

فصاح بهم المعلّم مدهوشاً: «ماذا أسمع؟ ألم تطالعوا أيّ كتاب؟ الكتب كثيرة وملأى بوصف الربيع».

وأخبر المعلّم تلاميذه بأنّ العشب في الربيع ينمو ويخضرّ، والسماء تصبح زرقاء صافية تعبرها أحياناً غيوم بيض، والشجر يزهر ويثمر، والطيور تطير مرحة، والدماء تركض في العروق، فتعجب التلاميذ، ولم يصدّقوا كلّ ما قاله معلّمهم، فأرضهم بغير عشب في كلّ الفصول، والشجر مجرد أعمدة للأسلاك الكهربائية، والطيور هربت، ومن لم يهرب أكله الصيادون مشويّاً، والدماء لا تركض في العروق إلاّ لحظة تلمح العيون الأنواع الشهيّة من الحلوى، ولكنّ أوامر المعلّم الصارمة أرغمت أيديهم على إمساك الأقلام على مضض، وكتبوا على الورق الأبيض ما طلب إليهم، ولم ينل ما كتبوه إلاّ هزء معلّمهم الذي وعدهم بأن يحضر إليهم يوماً صورة

كبيرة ملوّنة لبستان في الربيع حتّى لا يظلّوا عاجزين عن وصف الربيع.

وفي اليوم التالي، دخل المعلّم إلى قاعة الدرس ليباغت فيها بوجود تلميذ واحد فقط، فسأله: «أين بقية التلاميذ؟».

قال التلميذ بصوت حزين: «أظنّ أنّهم ماتوا، فالطائرات التي أتت في الليل، ألقت قنابلها على البيوت التي يسكنون فيها».

فسأله المعلّم: «وأنت؟ كيف نجوت؟».

فقال التلميذ: «أنا أسكن في منطقة أخرى لم تصبها القنابل».

قال المعلّم: «مساكين! كانوا تلاميذ لا يحبّون المدرسة ولا الدروس».

ولم يكن المعلّم صادقاً، فالتلاميذ القتلى كانوا يأتون كلّ ليلة إلى المدرسة، ويجلسون على مقاعدهم، وينتظرون معلّماً لا يأتي، ولا يجلب معه صورة كبيرة ملوّنة لبستان في فصل الربيع.

٢٩

بيت كثير الغرف

﴿١ ـ الولادة﴾

استولى أقوى الرجال وأغناهم وأمكرهم على أراض ذات سهول وجبال وأودية، واستولى على سماء وشمس وقمر ونجوم تتلألأ حين يسود الظلام، واستولى على غيوم ترحل من مكان إلى مكان، واستولى على ربيع وصيف وخريف وشتاء، واستولى على قطط وكلاب وطيور، واستولى على صحارى وبحار وبحيرات وأنهار، ثم تفحّص مليّاً ما استولى عليه، فرأى أنّه أصبح مالكاً لوطن لا ينقصه إلاّ الرجال والنساء والأطفال، فظفر توّاً بما ينقصه وبغير جهد.

﴿٢ ـ الخديعة﴾

رأى مالك البلاد مصادفة فيلماً سينمائياً عرضه التلفزيون، ومثّلت فيه امرأة جميلة، بيضاء، شقراء، فصاح بخدمه آمراً: «أبغي هذه المرأة».

فبهت خدمه الذين كانوا وزراء وجنرالات ومالكي ملايين وشعراء

وصحافيين وشيوخاً ذوي لحى طويلة وقور، وأنبأوه أنّ تلك المرأة ماتت منتحرة منذ سنين، فقال لهم بإصرار وحنق: «لا أريد سماع أيّ عذر، ولا يهمني أيّ مال ينفق».

فسارع خدمه إلى الاتصال بالمشاهير من الوسطاء القديرين الذين نشطوا ليلاً ونهاراً، وجرت مفاوضات طويلة مرهقة في الجنّة والنار وفي العديد من عواصم العالم، واختتمت بالنجاح بعد أن دفعت المبالغ الطائلة، وفازت المرأة الجميلة البيضاء الشقراء بإجازة مدّتها سبعة أيام تقضيها في سرير مالك البلاد، ولكنّها لم تبق فيه سوى ليلة واحدة، فرائحة فمها لا تطاق، ولحمها بارد كأنّه لحم جثة، لا شيء يؤثّر فيه، فأعيدت في اليوم التالي إلى حيث كانت، وظلّ مالك البلاد طوال أيّام متجهم الوجه، يحاول أن ينسى ما تعرضّ له من خداع خبيث يصعب نسيانه.

﴿٣ ـ لك ما شئت﴾

استدعى المالك الأوحد للبلاد وزير إعلامه، وقال له بصوت صارم: «لم أطلبك إلاّ لأذكّرك بواجباتك كوزير للإعلام، وأنبّهك إلى أنّي أعرف كلّ ما تفعله، وأعرف أيضاً حتّى ما تفكر به».

قال وزير الإعلام: «لا أحد يجرؤ على القول إنّك لست بالعليم بكلّ شيء».

قال المالك: «أنت اختلست أموالاً كثيرة تحيّرك وتجعلك عاجزاً عن إنفاقها».

قال وزير الإعلام: «ما أخذته هوّ مجرد قرض بلا فوائد لأنّي أكره الربا».

قال المالك: «ولم تترك موظفة من موظفاتك إلاّ وأرغمتها على المرور بفراشك».

قال وزير الإعلام: «ماذا أفعل إذا كانت اللقمة تُدسّ في فمي، فأضطر إلى مضغها وابتلاعها؟».

قال المالك: «وزوجتك تعشق سائق سيارتها».

قال وزير الإعلام: «سألفت نظرها إلى أنّ الناس مقامات وطبقات ودرجات».

قال المالك: «وابنتك تلاحق النساء».

قال وزير الإعلام: «ومَن مِنّا لا يلاحق النساء؟».

قال المالك: «وابنك يركض من مستشفى إلى مستشفى مطالباً بتحويله من رجل إلى امرأة».

قال وزير الإعلام: «لا أحد يعرف ابني أكثر مني، كسلان ويبحث دائماً عمّا يريحه».

قال المالك: «وسيارتك تدعس كلّ أسبوع مواطناً».

قال وزير الإعلام: «لو كان الناس مهتمين بعملهم لما تسكعوا في الشوارع وارتطموا بالسيارات».

قال المالك: «لو حاولت إحصاء كلّ أخطائك لاهترأ لساني».

قال وزير الإعلام وهو يحني رأسه: «لا أحد كاملاً، والله خلقنا لنرتكب الذنوب ونتوب عنها، والله غفور رحيم».

قال المالك: «كيف تطمع في أن تُغفر لك ذنوبك وأنت مقصّر في عملك التقصير المخجل؟ لماذا لا تردّ على هذه الكتابات التي تنشرها الصحافة الأجنبية المغرضة، والتي تقول إنّي في مطلع كلّ أسبوع أتزوج من امرأة وأطلقها في نهاية الأسبوع؟».

قال وزير الإعلام: «صيت غني يا طويل العمر ولا صيت فقر، وهذه الكتابات لا سبب لها إلاّ الحسد، ولو كان عنترة بن شداد يحيا في زماننا لعجز عن أن يتزوج امرأة واحدة».

فقال المالك بنزق: «ردّ عليهم، ولن أرضى عنك إلاّ حين أرى ردّك».

فوعد وزير الإعلام بالردّ في أقرب فرصة ردّاً يلقم الخصوم حجراً من سجيل، وبرّ بوعده، وظهرت بعد أيام على شاشة التلفزيون التايلندي فتاة جميلة، تحدثت عن صلتها بالمالك الأوحد للبلاد، وقالت إنّها كانت معجبة به وبرجولته منذ نعومة أظافرها، وما إن صارت فتاة تصلح لكلّ ما يشبه الزواج حتّى تسللت في الليل إلى غرفة نوم مالك البلاد، فوجدته منكبّاً على قراءة كتاب لابن خلدون وأشعار للمتنبي والإنصات للقرآن الكريم وموسيقى هاندل، فحاولت إغراءه بكلّ الوسائل، فأخفقت، وظلّ مستغرقاً في القراءة والإنصات.

وكشفت الفتاة عن نهدين سمراوين صلبين يذكّران بالتفّاح والإجاص والعنب الأسود، وقالت بحنق: «ألصقت هذين بفمه، وما تحرك».

واختتمت الفتاة كلامها بأن قالت بصوت متهدج: «كلّ ما ذكرته يثبت أنّ كلّ ما يشاع عن زواجه كلّ أسبوع من امرأة هو كذب وافتراء ولا نصيب له من الصحة. لقد دخلتُ إلى غرفته ثيباً وخرجتُ منها عذراء».

وقد رضي مالك البلاد عن وزير إعلامه، وازداد إعجاباً بذكائه ودهائه، وعيّنه مفتياً لكلّ البلاد التي يملكها، وأهدى إليه لحية طويلة

مستعارة تتلاءم مع منصبه الجديد الجليل، فكانت أول فتوى أصدرها تبيح للحاكم المظلوم أن يحارب شعبه الظالم حتّى يعلن الاستسلام بغير شروط.

﴿٤ ـ شموس المفتي﴾

طلب المالك الأوحد للبلاد والعباد إلى مفتيه أن يعظه ويعظ المسلمين في أرجاء المعمورة أجمعين، فقال المفتي: «أستهل كلامي بحمد الله الذي وهبنا الصحارى، تحتمي وجوهنا برمالها في أيام المحن والشدائد، فلا ترى عيوننا ما يحلّ علىظهورنا، وكلّ ما لا تراه العيون ليس بموجود ولا يؤبه له».

فتمتم المالك شاكراً الله بخشوع داعياً أن يهبه مزيداً من الرمل بينما تابع المفتي كلامه قائلاً: «سنعلّم أبناءنا ما تعلّمناه من آبائنا، وأبناؤنا سيعلّمون أبناءهم ما تعلّموه منّا».

فقال المالك: «تلك قيمنا وتقاليدنا الأصيلة، ولن نتخلى عنها، وسنقاتل في سبيلها إلى يوم القيامة مرحّبين بالتضحيات الجسام».

قال المفتي: «المهمة الأولى لكلّ عالم صادقٍ تنبيه أولي الأمر إلى أيّ خطأ من أخطائهم حتّى يبادروا إلىّ تصحيحه والقضاء عليه، وأيّ عالمٍ يتوانى عن أداء هذه المهمة الشريفة ليس بعالمٍ وسيدخل جهنّم، ومهمتي اليوم تحذيرك يا طويل العمر من هذه الشّوارع التي تستحدث وترصد لها بسخاء الموازنات الضخمة، فأرضها تُغطى بإسفلت شديد الصلابة، يصلح لأن تمرّ فوقه السيارات، ولا يصلح ملاذاً للرؤوس الراغبة في الأمان والنجاة، ولن ينتج عنه إلاّ تحطيم الرؤوس وإسالة الدماء، ولو شاء الله الشوارع لخلقها بغير أن يحتاج أبناء آدم وحوّاء إلى التعب وإنفاق الأموال».

ففكر المالك في ما سمعه، وتكلم بصوت مبتلّ بالدموع آمراً بتغطية كلّ الشوارع بطبقة كثيفة من الرمل لا تقلّ سماكتها عن قامة رجل طويل.

وقال المفتي: «ومهمتي اليوم تحذير المسلمين كافة من عادة مذمومة مستوردة من بلاد الكفّار، وهي عادة تقبيل أفواه النساء، فالمرأة لم تخلق إلاّ للإنجاب، وليس للتقبيل أيّ دور في الإنجاب بل إن تقبيل أفواه النساء من شأنه أن يذلّ الرجال وينال من كرامتهم، فمنْ يقبّل فم المرأة سيهون عليه أن يقبّل يدها ويقبّل قدمها، والمسلم الحقّ لا يقبّل إلاّ أيدي شيوخه وأيدي أولي أمره تعبيراً عن حبّه وولائه وطاعته».

فتجهم وجه المالك، وأصدر أمراً صارماً يحظر على الرجال تقبيل أفواه النساء، ويبيح فقط تقبيل أيدي أولي الأمر.

وقال المفتي: «ومهمتي اليوم تذكير المسلمين بأنّ إخوانهم في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانوا يطبخون الحصى، فلماذا يهمل المسلمون اليوم الحصى وبلادهم ملأى بها؟».

فأمر المالك باستيراد الحصى من خارج البلاد بعد أن كشفت الاختبارات أنّ الحصى المحليّة قليلة الفائدة، فامتلأت أفواه الجائعين بالحصى، ولكنّهم لم يتخلوا عن التذمر والشكوى.

﴿٥ ـ المطر العابث﴾

في يوم من أيام صيف حارّ، غطت فجأة سحب سود سماء المدينة، فنظر الناس إليها بخوف واستغراب، ولكنّها باغتتهم بأنّها أمطرت فوق رؤوسهم دولارات من الصباح حتّى المساء، فأتيح لكلّ واحد منهم أن يجمع من الدولارات قدر طاقته وجهده.

وفرح الفقراء فرحاً منعهم من النوم ليلاً، وتراكضوا في الصباح إلى المصارف، وتزاحموا على أبوابها قبل أن تفتح، ولكنّ المصارف أبت التعامل مع دولاراتهم إذْ ثبت أنّها مزوّرة تزويراً ساذجاً لا يخدع أحداً بينما كانت الدولارات التي جمعها الأغنياء حقيقية ومرحّباً بها، واضطرت السلطات المختصة إلى إصدار تعليماتها المشددة التي تقضي بمصادرة تلك الدولارات المزوّرة ومعاقبة مقتنيها ومروجيها.

﴿٦ ـ الهادي والمهتدون﴾

عاد وزير التموين إلى قصره، فوجد زوجته متجهمة الوجه، واجمة، محمرة العينين كأنّها بكت طويلاً، فسألها عن السبب، فقالت له بنزق: «ألا تعلم بما يجري؟ الناس يمدحونك ليل نهار، ويقولون إنّ كلّ السلع الغذائية باتت بسببك متوافرة بكثرة في الأسواق وبأسعار رخيصة تجعل أسرة أفقر فقير لا تنام إلاّ وهي تعاني التخمة».

فقال لها الوزير بدهشة: «أين عقلك؟ هل جننت؟ أيحزنك أن يحبّني الناس؟».

قالت الزوجة: «أنت مجرد وزير، ولك رؤساء قادرون على الإطاحة بك ساعة يشاؤون، وإذا علموا بما يقوله الناس عنك، نقموا عليك، وأصبحت خصمهم الأوحد. وإذا كانوا من الرحماء اكتفوا بطردك من منصبك شرّ طردة. أمّا إذا كانوا غير رحماء، فقد تعتقل، وتسلخ حيّاً، ويحشى جلدك بالتبن».

ففكر الوزير لحظات ثم قال لزوجته: «كلامك واقعيّ ومعقول، فماذا أفعل؟».

قالت الزوجة: «سارع فوراً إلى تصحيح خطئك خاصة وأنّ حبّ الناس لك هو لا شيء بالنسبة إلى حبّك لكرسي الوزارة».

وبعد أسابيع، فقدت السلع الغذائية من الأسواق، وغلا ثمنها، فجاع الناس، وتراكضوا إلى الوزير متضرعين مستغيثين، فقال لهم موبخاً وساخراً إنّهم كثيرو العدد، وأكثر مما يحتاج إليه البلد، ونصحهم بأن يأكل بعضهم بعضاً منبهاً إلى أنّ اللحم البشري سيصبح شهيّاً مغرياً إذا كان طاهيه بارعاً وخبيراً، ولكنّ الوزير لم ينج مما كان يخشاه وتخشاه زوجته، فنصْحه للناس أرشدهم إلى طريق يكفل لهم الحصول على الطعام مجّاناً، ولكنّه يقلل عدد الأيدي العاملة ويرفع أجورها.

﴿٧ ـ ليس لنا إلاّ الشكوى والصبر﴾

يا أمير المؤمنين: حقولنا غزاها جراد ماكر لا يقاوم، وليس في مخازننا أيّة مؤونة.

فبوغت أمير المؤمنين بما قلنا، وطلب إلى كبير شعرائه أن ينظم قصيدة في ذمّ الجراد، وحضّ أطباءه على المسارعة إلى تأليف الكتب التي تبين ما في الصوم من فوائد صحيّة.

(قيل لنا إنك ربيع، فما هذا الربيع الذي يبيد الاخضرار أينما كان)

يا أمير المؤمنين: قوانا نفدت، وصرنا عظماً وجلداً.

فتعجب أمير المؤمنين مما بلغه، وأمر جرائده وإذاعاته وتلفزيوناته بمضاعفة اهتمامها بالبرامج الرياضية.

(قيل لنا إنّك حكيم، فهل من الحكمة أن تقطع الشجرة لتأكل ثمرها؟)

يا أمير المؤمنين: حتّى أنهارنا تعاني العطش، وينابيعنا جفّت، ولا غيم في سمائنا.

فدهش أمير المؤمنين، وأمر باستيراد الغيوم من السويد وإجراء تحقيق عاجل مع الأنهار والينابيع بغية الكشف عن أسباب تقصيرها.

(قيل لنا إنّك سحابة، فما هذه السحابة السوداء التي تزيد من عطش الأرض؟ وقيل لنا إنّك باني الصروح الاقتصادية في البلاد، ولكنّك لم تبن في القلوب إلاّ أسواراً من البغضاء)

يا أمير المؤمنين: جيوبنا خاوية، ونسينا كيف تكون النقود.

فبُهت أمير المؤمنين، وأمر بفتح أبواب خزائنه حتّى يتاح لنا أن نتذكّر ما ادعينا نسيانه.

(قيل لنا إنّك الغنيّ، ولماذا لا تكون غنيّاً وقد ملكت البلاد كلّها والعباد؟ وقيل لنا إنّك الأمين، وفي أيّامك صار اللصوص جيشاً لا يقهر)

يا أمير المؤمنين: الخجل يرغم زوجاتنا على القعود في البيوت وعدم الخروج منها حتّى لا يتهمن بأنّهن متسولات متزوجات من متسولين.

فاستنكر أمير المؤمنين ما قيل له، وأمر رجال شرطته باعتقال الخجل ومعاقبته أقسى عقاب.

(قيل لنا إنّك عادل، ولا سبب لهرب الناس إلى آخر الدنيا سوى عدلك)

يا أمير المؤمنين: كلّ الناس في ضيق وكرب، وآمالهم تهلك أملاً بعد أمل.

فتأثر أمير المؤمنين بما سمع، وأمر مغنياته بالاستمرار في الغناء حتى مطلع الشمس.

(قيل لنا إنّك متسامح، ولكننا لم نر إلاّ المشانق تنصب والأجساد تتأرجح متدلية من أعوادها، وقيل لنا إنّك تحبّ الرجال الأحرار، فهل جلودهم وحدها الصالحة للسلخ؟)

يا أمير المؤمنين: علماؤنا جهّال، وأبطالنا رعاديد مساومون، وشعراؤنا المشاهير ينظمون قصائد تمدح القاتل وتلعن القتيل وتحضّ على قتله ثانية.

فامتعض أمير المؤمنين من قولنا، وندد بالذين لا يثقون بمنتوجات بلادهم وصناعاتها، فيرون نور الشمعة في البلاد الغريبة ولا يرون في بلادهم الأقمار البازغة والشموس المشرقة.

(قيل لنا إنّك لا تنام في الليل ساهراً على مصالح رعيتك، فصدّقنا ما قيل، فمن كان مثلك سترحف النصال إلى عنقه إذا أغمض عينيه ليلة).

يا أمير المؤمنين: حاضرنا غبار، ومستقبلنا غبار، وماضينا غبار، ودماؤنا غبار، فماذا نفعل؟

فابتسم أمير المؤمنين ابتسامة طفل مرح، وطالب منجميه بالإسراع في إعداد جواب عن سؤالنا يتكفل بإقناع كلّ قانط.

(قيل لنا إنّك محبّ للناس أجمعين، ولكنّك لو كنت تكرههم لما استطعت إيذاءهم أكثر، وقيل لنا إنّك غفور، فغفرت للأعداء، ولم تغفر لحظة لشعبك).

يا أمير المؤمنين: لقد وعدنا يوم ولدنا بقبور فسيحة ننالها مجاناً في آخر العمر، فإذا ما وعدنا به ليس سوى كذب، ولم ننل إلاّ إيماناً جديداً بغباوتنا.

فضحك أمير المؤمنين، ووعدنا بأنّ البحر كلّه سيكون مقبرتنا الخاصة لا يشاركنا فيها أحد، ونبّهنا إلى أنّ الميّت المدفون في البحر

نظيف دائماً ولا يحتاج إلى نظافة إضافية تبدد مياه الشرب الثمينة.

(قيل لنا إنّك الصادق، ولكننا لم نر في ساحاتك إلاّ الرياء يصول ويجول وحده منتصراً على كلّ من عاداه؟ وقيل لنا إنّك الكريم، فهل شهادة الخدم تصلح لأن تكون موثوقاً بها؟).

يا أمير المؤمنين: رجالك البسلاء اعتادوا السير على ظهورنا ورقابنا.

فغضب أمير المؤمنين على سلوك رجاله، وأمرهم بالسير على بطوننا ووجوهنا.

(قيل لنا إنّك الرحيم، ولا غاية لنا في الحياة إلاّ الفرار من رحمتك، وقيل لنا إنّك من كاظمي غيظهم، فابتسمنا إذْ ليس لنا إلاّ أن نكظم غيظنا، وقيل لنا إنّك من الخالدين، وما قيل لنا ليس كذباً، فكيف سننسى ما يحلّ علينا؟).

يا أمير المؤمنين: أطفالنا حفاة عراة مرضى.

فاحمر وجه أمير المؤمنين حزناً، وصفق معجباً برقص جواريه.

(قيل لنا إنّك صابون، فلم نر صابوناً ولا رغوة).

يا أمير المؤمنين: الأعداء يحيطون بنا من كلّ جانب، ولا نجاة لنا إلاّ إذا قاتلناهم وخضنا غمار حرب طويلة مصممين على أن نَقتُل ونُقتَل.

فضحك أمير المؤمنين ضحكة أب شفوق، ونصحنا بمتابعة السعي لطلب الرزق الذي خلقنا من أجله، ولم نخلق للحرب والقتال.

(قيل لنا إنّك السيف الغاضب المشهر، ولكنّك سيف لم يشهر يوماً على عدوّ، وشهر فقط على أهل البلاد، وقيل لنا إنّك حارس البلاد وحاميها، فيا لك من حارس غريب الأطوار، يطلب من أعداء البلاد حمايته، وينفق الثروات الطائلة على استيراد الحرس الشديد! وقيل لنا إنّك شجاع وبطل، ففي أيّ المعارك تجلت شجاعتك وبطولتك؟).

يا أمير المؤمنين: البلاد بلادك، ولكنّها بلادنا أيضاً.

فدمعت عينا أمير المؤمنين، وتهدج صوته وهو يأمر سيافيه بقطع رؤوسنا، ويطيع السيافون توّاً.

(قيل لنا إنّك القويّ، وأنت القويّ حقّا على العزّل من قومك، وقيل لنا إنّك قائد ملهم، فليلهمنا الله الصبر والسلوان، وليهبنا حسن الختام).

يا أمير المؤمنين: كلّ ما تفعله خيرٌ، فقطع رؤوسنا أتاح لنا أن نوفّر الأجور التي كنّا ندفعها للحلاقين، واسترحنا من أوجاع أسناننا المنخورة، وتخلصنا من صداع أعيانا بغير أن نعرف له دواءً.

﴿٨ ـ النار﴾

أعددنا محرقة لا نظير لها، وتطوّع أحدنا باقتحام نارها كي يتيح لنا أن نختبر قوتها، فإذا هي تحرقه في ثوان، فوثقنا بها، ورمينا في نارها بقمر لا يبزغ إلاّ في الليالي التي نحتاج فيها إلى الظلمات، ورمينا في نارها بمدائن تهوى الرايات البيض، ورمينا في نارها بأمهات تناسين أنّهن أمهات، ورمينا في نارها بآباء يبغضون أبناءهم، ورمينا في نارها بأبناء يزدرون آباءهم وأمهاتهم وأجدادهم، ورمينا في نارها بثياب عتيقة بالية تذكّر بذلّ طويل، ورمينا في نارها بحاكمين ماتوا بغير أن يدفنوا، ورمينا في نارها بكتب تشبه عمياناً يتصدون لإرشاد المبصرين، ورمينا في نارها ببيوت شبيهة بجوارب عتيقة، ورمينا في نارها بعصيّ وسياط ومحققين وسجون ومشانق، ورمينا في نارها بشجر لا يزهر ولا يثمر، ورمينا في نارها بكلّ ما نملك من دموع، ورمينا في نارها برماد نار قديمة، ورمينا في نارها بالرجال الظالمين، فانطفأت النار، وظللنا مظلومين.

﴿٩ ـ بقراتنا العجاف﴾

﴿١﴾ رشّح الجنرال أحمد سيف الله قائد الجيش نفسه لرئاسة الجمهورية، وأعلن في بيانه الانتخابي أنّه ليس قائداً عسكرياً فحسب بل هو عالم قدير توصل إلى ابتكار دواء لا مثيل له سيجعل من كان عمره ثمانين سنة يتزوج من أربع، ولا يكتفي ويتذمر ويشكو ويطالب بالمزيد.

ووعد الجنرال الناس أجمعين بأنّه سيوزع عليهم دواءه المبتكر مجّاناً.

ولمّا صار الجنرال رئيساً للجمهورية حنث بوعده، ولم يوزع دواءه على الناس، واكتفى هو ورجاله بتعاطي ذلك الدواء، فلم ينج أحد من الاغتصاب، لا فرق بين رجل وامرأة، ولا بين طفل وعجوز، ولا بين حيّ وميت.

﴿٢﴾ ضحكنا هازئين لمّا علمنا أنّ الجنرال أحمد سيف الله قائد جيشنا قد رشّح نفسه لرئاسة الجمهورية، فهو أحمق وجبان وصلف، ولم ينتصر إلاّ في معاركه في الملاهي ونوادي القمار، ولكنّ رجال الشرطة أخبرونا أنّ الجنرال رجل شديد الإخلاص لشعبه ووطنه، ومن كان مثله لا يليق به سوى المؤازرة والانتخاب.

وظهر شيخ جليل وقور في برنامج تلفزيوني، وقال بصوت خاشع متهدج وعينين مبتلتين بالدموع إنّه رأى في نومه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم، وسمعه يردد أنّ كلّ من ينتخب الجنرال أحمد سيف الله لن يحاسبه منكر ونكير في القبر وسيدخل الجنّة.

ولمّا كنّا نرغب في العيش في الجنّة، ونحرص على ألاّ نغضب رجال الشرطة، فقد تسابقنا جميعا على انتخاب الجنرال رئيساً لنا،

فلم ندخل أيّة جنة، وظلّ رجال الشرطة يطاردوننا كأننا قتلنا أمهاتهم.

﴿٣﴾ أيقظتني زوجتي من نومي لتعلمني أنّ التلفزيون أذاع أنّ مجهولاً اغتال الجنرال أحمد سيف الله، وحلّ محلّه جنرال آخر لا تتذكر اسمه، فأغمضت عينيّ، وتثاءبت غير مبال، فلست المقتول ولا القاتل.

﴿١٠ ـ الجنرال يزور القرية﴾

توقفت السيارة السوداء في ساحة القرية، وترجل منها الجنرال، وسار وحده لا يرافقه أيّ حراس، فبادر الرجال والنساء إلى الاختباء، ولم يبق في الساحة سوى أطفال كان فضولهم أقوى من خوفهم.

اقترب الأطفال من الجنرال بخطى مترددة، وتحلّقوا حوله محملقين باستغراب ودهشة إلى ثيابه العسكرية، فقال لهم الجنرال بصوت مرح: «ألم تروا جنرالاً من قبل؟ لماذا وجوهكم صفراء بلون الليمون؟ هل اللون الأصفر هو الزيّ الشائع في الريف؟ ما بكم؟ أأنتم حزانى أم خائفون؟ انظروا إلى ما حولكم. كلّ شيء جميل ورائع».

فحدّق الأطفال إلى ما حولهم، وازدادت عيونهم اكتئاباً.

قال الجنرال: «انظروا إلى الغيوم».

فنظرالأطفال إلى الغيوم. ما أجملها! تشبه قطعاً كبيرة من الجبن الأبيض، وتصلح لأن تؤكل مع الخبز الأسود.

قال الجنرال: «إنظروا إلى النهر».

فنظر الأطفال إلى النهر. ما أجمله! ليته يتخلى قليلاً عن بخله

وكسله، ويرمي سمكه إلى ضفتيه بغير أن يتعب الصيادين.

قال الجنرال: «انظروا إلى الأشجار».

فنظر الأطفال إلى الأشجار. ما أجملها! سترداد بهاء وفتنة حين تمتلك أقداماً تتيح لها الهرب والركض من حقل إلى حقل.

قال الجنرال: «انظروا إلى العصافير».

فنظر الأطفال إلى العصافير. ما أجملها وهي تحوّم في السماء! ليتها تشفق علينا وتعلّمنا الطيران!

قال الجنرال: «انظروا إلى البيوت».

فنظر الأطفال إلى البيوت. ما أجملها.. جلد أبيض وقلب أسود!

وصاح الجنرال بالأطفال متسائلاً: «أين أمهاتكم وآباؤكم؟ أمهاتكم جميلات أم قبيحات؟».

ما أجمل أمهاتنا وعصيهن المنهالة على رؤوسنا وظهورنا، تحاول إعدادنا للمستقبل وجنرالاته!

ما أجمل الجنرالات وجنودهم يدحرون خصومهم ولا يبقى غيرهم على وجه الأرض!

﴿١١ ـ الوفد الشعبي﴾

ذهبنا إلى رئيس جمهوريتنا المنتخب حديثاً، وهنأناه بكلام غير منافق على نيله ثقة الناس الكارهين لأشباح الجنرالات وجنودهم، فقاطعنا قائلاً: «لا تضيّعوا وقتي ووقتكم بالسفاسف، فإذا كان لديكم أيّ مطالب، فلا ترددوا في عرضها عليّ، وستنالون أيّ مطلب شرط أن يكون معقولاً ومقبولاً».

قلنا له إنّ أرض طرقاتنا باتت مغطاة بالحفر، والمشي عليها لا يخلو

من المخاطر، فابتسم، وقال لنا: «لتبق الطرقات على حالها لأنّكم لن تحتاجوا إلى المشي».

ووعدنا بأن يمنح كلّ واحد منّا سيارة تشبه الطائرة.

قلنا له إنّ الماء الذي نشربه كلّ يوم ماء كريه، حتّى قططنا تأبى أن تشرب منه، فابتسم، وقال لنا: «إنسوا الماء، ففي عهدي الجديد ستشربون البيرة أو الشمبانيا حين تعطشون».

قلنا له إنّ بيوتنا ضيّقة، ولا صلة لها بالشمس والهواء، فاحمّر وجهه غيظاً، وأمر بهدمها فوراً، ووعدنا بأن يسكننا القصور المنيفة بدلاً من بيوتنا الوضيعة.

قلنا له إنّ دعواتنا إلى الله مهما كانت مخلصة لا تستجاب لأنّ مآذن مساجدنا تشبه الأقزام، فابتسم، ووعدنا بتزويدنا مجّاناً بأحدث ما في الأسواق من مكبرات الصوت.

قلنا له إنّ أطباءنا مهملون وجشعون، وأمراضنا تزداد بدلاً من أن تقلّ، فابتسم مشفقاً، وأمر رجال أمنه الأشداء بأن يحرسوا الحدود جيّداً ويمنعوا أيّ مرض من الدخول إلى البلاد، وكلّ مرض يتجرأ على العصيان يقتل بلا محاكمة.

قلنا له إننا نشتغل من شروق الشمس إلى غروبها وبأجر قليل، فضحك، ووعدنا بأن نشتغل ساعتين فقط في اليوم، ونخصص بقية الساعات للتحرش بزوجاتنا.

قلنا له بأصوات مبحوحة إنّ زوجاتنا قبيحات وسليطات اللسان، فابتسم بحنوّ، وحضّنا على تطليقهن فوراً، ووعدنا بأن يزوّجنا من أجمل النساء.

وعدنا إلى بيوتنا التي تهدمت لنعيش مع زوجات يزددن قبحاً

وصلفاً وغباوة، ولنشتغل كل يوم من شروق الشمس إلى مطلع الفجر، ولنمشي في طرقاتنا بأقدام مهترئة، ولنشرب ماءً تتهرب الكلاب من شربه، ولتظلّ ابتهالاتنا المتضرعة إلى الله تنطلق من مكبرات الصوت ضوضاء لا تجلب لنا إلاّ الأرق.

﴿١٢ ـ بعد ألف سنة﴾

مات رئيسنا الذي انتخبناه مرة واحدة وانتخب نفسه في بقية المرات حتّى لا يتعبنا..

مات رئيسنا بعد أن قعد على رؤوسنا ألف سنة حافلة بشتى المسرات، فبادرنا إلى ارتداء أقتم ما لدينا من ثياب، ومشينا في جنازته نبكي وننوح ونندب مطأطئي الرؤوس.

ولمّا أتى الليل أعمى الحزن المتزايد بصرنا وبصيرتنا، فضللنا الطريق ونحن نتخبط فوق زوجاتنا، ولم نعد نفرّق بين الهضبة والوادي، ولم تحاول زوجاتنا تصحيح أخطائنا وإرشادنا، وتابعن الشهيق والزفير والنحيب المرّ المتوجع، فالكارثة شاملة تقهر أيّ صبر..

مات رئيسنا، وحلّت محلّه ابنته الصبية الجميلة، فتهامسنا قائلين: «قاتل جميل خير من قاتل قبيح».

ودشنت بنت الرئيس عهدها بخطاب قصير بليغ مملوء بالوعود، ولكننا علمنا من مصادر موثوقة أنّها ناقمة على الجوع إلى النساء المتفشي بين الرجال، والذي يحول دون تطور البلاد، ووعدت أنْ تضاجع كلّ الرجال، فلم تشر الصحافة بكلمة إلى هذا الوعد النبيل الخطير، ولكنّها تمادت في الثناء على كلّ مخلص يبتكر أساليب جديدة للقضاء على التفاوت بين الطبقات، وتمنينا ألاّ تنكث بنت الرئيس بوعدها، وقلنا: «الرئيس قعد مليون سنة على

رؤوسنا، وها هي ابنته ستقعد على رؤوس مختلفة وأصلب».

فسخرت نساؤنا من تفاؤلنا، وتنبأن بأن الراكب سيصبح مركوباً، فلم نأبه لهن، وكنّا سمكاً يرحّب بصياديه.

وسرت شائعة غريبة مفادها أنّ بنت الرئيس تعادي كلّ رجل يضاجعها بأساليب موروثة من الماضي، فتباهينا بطاقاتنا على التجديد والابتكار، وقلنا إنّ طالب العسل لا يبالي بلدغ النحل.

وشوهدت بنت الرئيس تتمشى في أرجاء قصرها بغير ثياب، فشهقنا إعجاباً بهذا الإلغاء العميق للفوارق بين الأغنياء والفقراء، وتذكّرنا أنّ أطيب الفواكه لا تؤكل إلاّ بعد تقشيرها.

وأمرت بنت الرئيس بهدم السجون، فابتسمنا بمرح، فالاختلاف بسيط بين الفرَج والفرْج.

واستقبلت بنت الرئيس كبار القتلة واللصوص ومهربي المخدرات، فوقفوا أمامها نادمين مضطربين، وأعلنوا توبتهم ووهب ما تبقى من حياتهم لبناء المستشفيات والمدارس، ولكنّ بنت الرئيس رفضت أن يتقاعدوا في سنّ مبكرة، فالبلاد المتحضرة هيّ التي تحسن استغلال طاقات أبنائها كلّهم أجمعين، وعيّنتهم في أخطر المناصب، فلم نكترث لما حدث، فليس لدينا ما يصلح لأن يسرق، ونساؤنا سيزددن قبحاً إذا صرن أرامل يرتدين ثياب حداد تليق بهن.

وأصدرت بنت الرئيس قانوناً يفرض على جميع المواطنين إجراء عمليات جراحية مجانية في المستشفيات الحكومية، تحوّل الرجال نساءً والنساء رجالاً، فلم نعارضه، ورحبنا به، فقد تعبنا تعباً طويلاً، وآن لنا الراحة والقعود في البيوت، ولكننا خشينا زوجاتنا اللواتي نظرن إلينا النظرات الهازئة المتشفيّة المهددة بالانتقام الرهيب.

وأعلنت بنت الرئيس أنّها ستكون أوّل المنفذين لهذا القانون، وستتحوّل من امرأة إلى رجل، فتصايحنا سكارى، فما لم ننله في الماضي قد نناله في المستقبل القريب، وما نتوق إليه يجهل التفريق بين الأدنى والأعلى والآكل والمأكول.

﴿١٣ ـ السحر المستمر﴾

تلاقى الليل والنهار على سرير ضيّق أغراهما بأن يمتزجا معاً، وتلاقيا تحت أغصان شجرة ترغب في موت سريع ولا تدري متى ستموت، وتلاقيا في بحر لا يتوقف عن الثرثرة وينتشي بثرثرته، وتلاقيا في أغنية يرددها رجل وامرأة، وكان الليل صوتاً أجشّ مبحوحاً والنهار صوتاً رقيقاً عذباً، وتلاقيا حول موائد خاوية يجلس إليها جياع صامتون، وتلاقيا في قبضة طفل رضيع غارق في النوم، وانتظرا حتّى تراخت أصابع يده، وتسلل منها الليل أوّلاً ثم تبعه النهار غاضباً لسبب غير معلوم، ولم يلتقيا مرة أخرى إذْ اختلفا، فالليل لا يحبّ إلاّ لونه ونجومه وقمره، والنهار لا يحبّ إلاّ شمسه ويأبى أن تقارن بأحد، ولكنّهما اتفقا فيما بعد على الإعجاب برجل كثير الأحلام يحلم بأنّه سيصبح وزيراً للداخلية في بلد يكثر فيه رجال الشرطة والسجون، ويطوّقه توّاً وسطاء الناس الراغبين في الحفاظ على حياتهم وثرواتهم، ويعرضون عليه مختلف أنواع الهدايا من مبالغ مالية طائلة وسيّارات وقصور ومزارع ونساء لا يجرؤ رجل على رفضهنّ، فيعرض عنها ممتعضاً، ويتجاهلها تجاهل المزدري، فلا يقنط الوسطاء المؤمنون بأنّ الإنسان خُلق ليأكل ويؤكل، ويعرضون عليه هدية جديدة عوناً خفيّاً قادراً على أن يجعله رئيساً للوزراء، فلا يرفض هديتهم، ويحثّهم على الإسراع قائلاً لهم إنّ خير البرّ عاجله، ويستولي على الأموال والسيّارات

والقصور والمزارع والنساء، ويقبل ليل لا يعقبه نهار، فيزهو الليل، فما أُعجب به أثبت أنّه جدير بالإعجاب، ويندم النهار.

﴿١٤ ـ سنضحك.. سنضحك كثيراً﴾

﴿١﴾ في يوم من الأيام، اقتحم رجال الشرطة بيتنا، وبحثوا عنّي وعن زوجتي، ولم يتمكنوا من العثور علينا لأنّي تحوّلت مشجباً، وتحوّلت زوجتي أريكة يطيب الجلوس عليها، وضحكنا كثيراً عندما خرجوا من البيت خائبين. ﴿٢﴾ وفي يوم من الأيام، كانت السماء زرقاء صافية لا تعبرها أيّة غيمة، فقصدنا أحد البساتين، فإذا رجال الشرطة يدهمون البستان بعد دقائق طامحين إلى الإمساك بنا، ولكنهم لم يوفقوا لأنّي تحوّلت غراباً أسود اللون، دائم النعيب، وتحوّلت زوجتي شجرة خضراء، غزيرة الأغصان، وضحكنا كثيراً من إخفاقهم. ﴿٣﴾ وفي يوم من الأيام، تذمرت زوجتي من عملها في المطبخ، فذهبنا إلى أحد المطاعم، وما إن بدأنا نأكل حتّى طوّق رجال الشرطة المطعم، واقتحموه عابسي الوجوه، وفتشوا عنّا تفتيشاً دقيقاً، ولم يجدونا لأنّي تحوّلت سكيناً، وتحوّلت زوجتي كأساً من زجاج ملأى بالماء، وضحكنا كثيراً لحظة غادروا المطعم قانطين. ﴿٤﴾ وفي يوم من الأيام، كنّا نسير الهوينا في شارع عريض مزدحم بالناس والسيارات، نتفرج على ما في واجهات الدكاكين من سلع، فإذا رجال الشرطة يحتلّون الشارع، ويعتقلون المئات من الرجال والنساء، ولكنّهم لم يستطيعوا اعتقالنا لأنّي تحوّلت حائطاً، وتحوّلت زوجتي إعلاناً ملوّناً ملصقاً بحائط، وضحكنا كثيراً من غباوتهم. ﴿٥﴾ وفي يوم من الأيام، ذهبنا إلى المقبرة لزيارة أمّي، فهاجم رجال الشرطة المقبرة، وقبضوا على أمّي، ولم ينجحوا في القبض علينا لأنّي تحوّلت كلمات رثاء مكتوبة بحبر أسود على

شاهدة قبر، وتحوّلت زوجتي باقة من الورد الذابل، وضحكنا كثيراً من سذاجتهم. ﴿٦﴾ وفي يوم من الأيام، هرعنا إلى المستشفى متلهفين، فزوجتي حامل في شهرها التاسع، وآن لها أن تلد، وما إن دنا فم طفلنا من ثدي أمه الطافح بالحليب حتى انقضّ رجال الشرطة على المستشفى، ولكنّهم عجزوا عن الاهتداء إلينا لأنّي تحوّلت رداءً أبيض وسخاً، وتحوّلت زوجتي مرآة خزانة خشبية ملأى بالثياب، وتحوّل طفلنا بوقاً لسيارة إسعاف مسرعة، وضحكنا كثيراً من بلاهتهم، وسنظلّ نضحك.

٣٠

لمن الورد الأصفر؟

كانت المرأة ذات وجه ناصع البياض وشعر أسود وثوب أسود، تسير في الشوارع، تحمل يداها باقة من الورد الأصفر، فتبعها أحد الرجال من شارع إلى شارع، فتنبهت إليه، وتوقفت فجأة عن المسير، وقالت للرجل بغيظ: «ألا تخجل مما تفعل؟ هل تقبل أن يتحرش رجل بأختك؟».

فقال الرجل للمرأة: «لي أخت واحدة ماتت صغيرة قبل أن تبلغ السنّ التي تؤهلها لأن يتحرش الرجال بها، وحين يتحرش رجل بامرأة، فهذا اعتراف منه بأنّها جميلة».

قالت المرأة مهددة: «إذا لم تكفّ عن ملاحقتي شكوتك لأوّل شرطي أصادفه».

فقال الرجل: «حين يراك الشرطي سيزداد عدد الذين يلاحقونك».

قالت المرأة متسائلة بنزق: «ماذا تريد مني؟».

فقال الرجل: «لمن هذا الورد الأصفر؟».

قالت المرأة: «أنا ذاهبة لزيارة قبر المرحوم أبي».

فقال الرجل: «وجهك ليس وجه امرأة تنوي زيارة المقابر».

قالت المرأة: «الورد لإحدى قريباتي، مريضة في المستشفى، وقد تموت».

فقال الرجل: «لا أصدّق. لا تحاولي خداعي».

قالت المرأة: «الورد لغرفتي».

فقال الرجل: «أصدّق ولا أصدّق».

قالت المرأة: «ألم يقل لك أحد إنّك أغلظ رجل على وجه الأرض؟».

فقال الرجل: «غريب! أمي دائما تقول إنّ خفّة دمي تجنن».

قالت المرأة: «إسمع. إذا لم تختف فوراً صرخت وجمعت عليك الناس».

فقال الرجل: «سيعذرني الناس، وسيعجبون بذوقي الرفيع».

قالت المرأة: «سيضربونك بالأحذية».

فقال الرجل: «لا يوجد شخص في هذا البلد يملك الهمّة الكافية لخلع حذائه».

فأشارت المرأة إلى بناية قريبة، وقالت للرجل بلهجة آمرة: «إلحقني إلى هذه البناية».

وسارت المرأة بخطى مسرعة نحو البناية ودخلت إليها بينما كان الرجل يتبعها صامتاً، والتفتت المرأة إلى الرجل، وقالت له: «أنا أعرف ماذا تريد ولا تجرؤ على طلبه».

ورفعت المرأة ثوبها عمّا فوق ركبتيها، وقالت للرجل: «هيّا افعل ما تشاء شرط ألاّ أراك ثانية».

فقال الرجل: «لا لا. أنت مخطئة. كلّ ما أريده هو معرفة لمن الورد الأصفر».

فقذفت المرأة بالورد الأصفر على الأرض، وداسته بحذائيها، وغادرت البناية حانقة، وبقي الرجل واقفاً يحملق إلى الورد الأصفر المتناثر على الأرض ثمّ انحنى وجمعه وأعاد ترتيبه، وخرج من البناية، وهرول محاولاً اللحاق بالمرأة.

٣١

طير أسود في سماء زرقاء

سألته بفضول: «ماذا تفعل؟».

ـ : «أدخن آخر سيجارة بلا فلتر أملكها، وليس في السوق سوى سجائر بفلتر أكرهها».

ـ : «وماذا ستفعل بعد تدخين السيجارة؟».

ـ : «سأستلقي على الأرض وأنام ساعة أو ساعتين، فأنا تعبان لا ينقصني إلاّ مستشفى».

ـ : «كأنّك مشتاق إلى الممرضات».

ـ : «أعوذ بالله! هناك ممرضات يتساقط شعر من يجرؤ على الاقتراب منهن».

ـ : «أهنّ مثيرات الى هذا الحد؟».

ـ : «لايصلحن إلاّ وقوداً في جهنم».

ـ : «لم تنم، وها أنت تحكي وطارت فكرة النوم من رأسك، فماذا تريد أن تفعل؟».

ـ : «أطشت صوابي بملاحقتك لما أريد أن أفعل، ولعلّك تريد مني

أن أفعل شيئاً لا تجسر على طلبه خشية أن أغضب وآخذ روحك. كلامي صحيح أم غلط؟».

ـ : «صحيح مئة بالمئة».

ـ : «قلْ إذن ماذا تريد بلا لفّ ودوران».

ـ : «أنت تميت كلّ يوم آلاف الأشخاص الذين انتهت آجالهم، ولكن ثمّة من يستحق أن يموت ولا يموت، ولو مات لعاش الناس سعداء».

ـ : «دوّختني بثرثرتك. هيا حدد اسم من تريد أن يموت».

فذكرت له اسمه وعنوانه ورقم هاتفه، فضحك، وقال لي: «لا بدّ من أنّ خصومه اتفقوا معك على مبلغ كبير من المال تقبضه إن خلّصتهم منه».

ـ : «ما تقوله صحيح».

ـ : «وهل تتوقع أن أعمل مجّاناً وتحصل وحدك على المال كلّه؟».

ـ : «سنقتسم المبلغ.. نصف لي ونصف لك».

ـ : «لا. المبلغ كلّه لي لأنّي أنا الذي سيقوم بالعمل من أوّله إلى آخره، وسأدركه ولو هرب واختبأ في بروج مشيّدة في آخر الدنيا».

ـ : «إذا أخذتَ المبلغ كلّه، فماذا سأستفيد؟».

ـ : «ستظفر بثقة من اتفقوا معك، وستشتهر بكونك رجل المهمات الصعبة».

ـ : «وماذا ستفعل بالمال؟».

ـ : «صديقتي الجديدة امرأة تحبّ العيش في البيوت الفخمة محاطة بعشرات الخدم، وتحبّ الثياب، وتحبّ السيارات، وتحبّ كلّ ما

يمكن أن يؤدي إلى إنفاق المال، فماذا أفعل إذا كنت حريصاً على المال ألاّ أرفض طلباً تطلبه؟».

ـ : «ومتى ستقتله؟».

ـ : «صحح كلامك. سأميته ولن أقتله، والفارق كبير بين الموت والقتل».

ـ : «أود أن أسألك عن اسمي. أهو موجود في دفترك الذي لا يفارقك؟».

ـ : «ما زلت شاباً، واسمك لم يرد بعد».

وغافلته يوماً وهو نائم نوماً عميقاً، وسجلت في دفتره أسماء كلّ الذين أبغضهم، فماتوا بعد أيام ميتة طبيعية.

وطلبت منه أن يسمح لي بمشاهدته وهو يعمل، ولم يوافق إلاّ بعد إلحاح، ورأيته يشير بسبابة يده اليمنى إلى المطلوب أن يموت، فتخرج روحه توّاً في شكل عصفور أو غراب أو غبار أو دخان، فقلت له: «ما أسهل عملك!».

فقال لي: «لا تتعجل في الحكم على عملي، وسترى ما يتعب ويثير الملل».

وزار يوماً رجلاً مستغرقاً في التفرج على مسلسل تلفزيوني، فلم يجزع الرجل إنما قال للموت: «أيطاوعك قلبك الرقيق أن تنتزع روحي قبل أن أكمل مشاهدة هذه الحلقة الأخيرة من المسلسل الذي أحبّه وأتابعه ولا أدع حلقة منه تفوتني؟ ما رأيك في أن ترجع إليّ بعد ساعة أو ساعتين، فتجدني مستعداً وفي انتظارك؟».

فتوارى الموت ليعود إلى الرجل بعد أربع ساعات، فقال له الرجل: «قبل أسابيع، عقدت صفقة تجارية مهمة جداً، وستدفع لي بعد أيام

حصتي من الأرباح، وحين أوزعها على زوجتي وأولادي سأموت مطمئن البال متأكّداً أنّ أسرتي ستعيش من بعد موتي حياة لائقة خالية من المنغصات».

واكتشف الرجل بعد أيام أنّ صفقته التجارية لم تجلب له سوى المزيد من الخسائر، وقال للموت عندما جاءه: «ليتك أتيت قبل ساعة! قبل عشر دقائق فقط، تلفنت لي امرأة جميلة أغازلها منذ سنوات بغير جدوى، وأبلغتني أنّ زوجها مسافر، وطلبت مني المجيء إلى بيتها ليلاً، وأنت لست قاسي القلب إلى حد أن تميتني من دون أن أخون زوجتي ولو مرة واحدة. ماذا سيقول عني أحفادي؟».

وذهب الرجل إلى لقاء المرأة، فإذا هي تشبه فاكهة من شمع، وقال للموت حين أتاه في صباح اليوم التالي: «أنا موافق على أن تأخذ روحي حالاً، فليس في حياتي ما آسف على فقده، ولكنّي أقترح تأجيل موتي بضع ساعات لأنّ مخفر الشرطة استدعاني للإجابة عن بعض الأسئلة الضرورية، وليس من اللائق ألاّ ألبي مثل هذا الاستدعاء وأتهم بالتقصير».

فابتسم الموت متعجباً، وذهب بغير رجعة، وترك الرجل شبيهاً بالأحياء ينتقل من مخفر إلى مخفر.

ومرض الموت ذات يوم مرضاً شديداً، فأعطاني دفتره، ورجاني وهو يحتضر أن أحلّ محلّه في العمل الذي يؤديه ليل نهار، فلم أخذله، وبادرت إلى العمل بحماسة ونشاط، ولكنّي كنت أحياناً لا أتقيد بما في الدفتر من أوامر، وأتجاهل أسماء النساء الجميلات والأطفال متذرعاً برداءة الخط، ولكنّ مساعدة النساء لم تكن دائماً أمراً ممتعاً حتّى أنّي اضطررت يوماً إلى التخلي عن عَزلتي، وسعيت لمقابلة

امرأة جميلة حاولت الانتحار سبع مرات، وأُنقذت سبع مرات، فلم تقنط، ولم يتغير طلبها للموت، وعزمت على الانتحار مرة ثامنة شرط أن تكفل له كلّ ما يؤهله للنجاح، وغادرت بيتها فرحة، واختارت المشي الوئيد في شارع فرعي شبه مقفردائماً، فاعترضتُ طريقها رجلاً طويل القامة، صارم الوجه، يرتدي ثياباً سوداً، وقلت لها بصوت نزق موّبخ: «أف! ما هذه التصرفات الصبيانية؟ تحاولين كلّ يوم الانتحار ولا تموتين كأنّ الحياة في رأيك ثوب تخلعينه ساعة تشائين».

فاستنكرت المرأة كلامي، وقالت لي: «إمش في طريقك ولا تكلّمني كأنّي أعرفك وتعرفني».

فقلت لها: «ومن قال إنّي لا أعرفك أم أنّك نسيت أننا تقابلنا سبع مرات عندما كنت في حالة إغماء؟».

قالت المرأة وهيّ تبتسم ابتسامة ساخرة: «أأنت طبيب أم شرطيّ؟».

قلت للمرأة: «لو كنت شرطيّاً أو طبيباً لاسترحت منك ومن محاولاتك التي تضيع وقتي».

قالت المرأة مدهوشة: «أظنّ أنّي عرفتك. أنت...».

فقاطعتها قائلاً: «الحمد لله لأنّك عرفتني. لديّ سؤال يحيرني وأجهل جوابه. لماذا تريدين أن تموتي؟».

قالت المرأة: «اذكر لي سبباً واحداً يغريني بالبقاء حيّة».

فقلت لها: «أنت ما زلت في مقتبل العمر، وأمامك مستقبل طويل عريض».

قالت المرأة: «ها أنت تتحدث كجدتي».

قلت لها: «أنت جميلة، ولا يراك رجل إلاّ ويحبّك».

قالت المرأة: «وأين هذا الرجل؟ تمنيت أن يحبّني ربع رجل، ولم أجده».

فقلت لها: «لا داعي إلى التشاؤم. أنا نفسي أحببتك منذ أن رأيتك عندما حاولت الانتحار أوّل مرّة».

قالت المرأة: «لا تمزح».

فقلت لها: «لست بالمازح، ولم أعرف المزاح طوال حياتي».

قالت المرأة: «لا أصدق كلامك».

قلت: «صدّقيه».

قالت المرأة: «سأصدق كلامك لو ابتسمت ابتسامة واحدة».

قلت: «لكلّ مهنة تقاليدها، ومهنتي لا يليق بها الابتسام».

فابتسمت المرأة ابتسامة واثقة، ودرّبتني فيما بعد على الابتسام والضحك، وأقنعتني بالعمل في مهنة أخرى والتخلي عن ثيابي السود قائلة لي: «هذه ثياب لا ترتدى إلاّ في الجنازات والأعراس».

وصرت أباً لثلاثة صبيان وبنتين، كبروا في السنّ بسرعة، وتزوجوا وعاشوا في مدن بعيدة تاركين أبويهم وحيدين: الأمّ امرأة عجوز مريضة لا تكفّ عن الأنين والشكوى والأب رجل ضجر مكتئب يحلم بالعودة إلى مهنته القديمة ويعجز في الوقت نفسه عن الانتقال وحده من غرفة إلى غرفة.

٣٢

ليلة للثرثرة

أين أنت الآن؟

في غرفتي مطوقاً بالجدران.

ماذا تأكل؟

آكل لحماً.

لحم خراف أم دجاج أم بقر؟

آكل قطعة خبز أتخيّل أنّها لحم مشويّ ببطء على نار هادئة.

ماذا تشرب؟

ماءً أتخيّل أنّه خمرة معتّقة تسكرني وتجعلني راغباً في الصياح والعربدة.

ماذا تفعل؟

أنظر إلى المرآة.

ماذا ترى فيها؟

أرى ضبعاً يتسلل ليلاً إلى البيوت ليفترس النساء.

ماذا ترى؟

أرى شبحاً يخاف ولا يخيف.

ماذا تقرأ؟

لا أقرأ، ولكنّي أبحث عن كتاب لا أجده.

أيّ كتاب؟

كتاب انمحت كلماته خجلاً من سذاجته وبلاهته وحمقه.

هل تحبّ النساء؟

أحبّ امرأة واحدة تبتسم، فتشعل النار في عروقي، وأشعر بأنّ في رأسي قنبلة موقوتة توشك أن تنفجر.

وأين هذه المرأة؟

لم ألتق بها بعد.

ماذا تشتغل؟

اشتغلت في كلّ المهن، ولا مهنة لي، ولكنّي أحلم بأن أصير يوماً لصّاً أو قاتلاً ذائع الصيت تلاحق الصحافة أخباره.

من ستقتل إذا صرت قاتلاً؟

من أتمنى قتلهم لا يحصى عددهم.

ومن ستسرق إذا صرت لصّاً؟

سأسرق البحر وأجرده من ثرواته التي يعتزّ بها.

ما هواياتك؟

الانصات بنشوة لغناء الضفادع.

ماذا تتمنى؟

أن أصبح جراداً بعد أن كنت طعاماً للجراد.

لنفترض أنّك صرت مليونيراً، فماذا ستفعل بأموالك؟

سأشتري قبراً بحجم مدينة كبيرة، وأدفن فيه وحدي.

لماذا تبكي؟

لا أبكي، وأذرف الدموع لأغسل وجهي وأنظفه.

أين أنت الآن؟

ما زلت في غرفتي تطوقني أربعة جدران خرساء صماء.

لماذا سجنت؟

أبعدنا الله عن السجون.

ولكنّك الآن في سجن ومسجون مثلي.

لعن الله النسيان.. علة لا دواء لها.

لماذا سجنت؟

سرقت بنكاً.

لا أصدّق. سارقو البنوك معروفون.

كنت محاسباً واختلست الملايين.

من يختلس الملايين لا يدخل السجون.

صفعت رجلاً أبغضه، فسقط على الأرض ميتاً.

صفعتك لا توقظ رضيعاً من نومه.

تسللت ليلاً إلى بيت مملوء بالنساء، واغتصبتهن جميعاً.

هذا ما تتمناه ولا تجرؤ على فعله.

كنت أعمل سائق سيارة تاكسي دعست طفلاً في الخامسة من عمره.

لا تكمل. تكاد تبكيني.

أحرقت قصراً، ولم ينج أحد من المقيمين به.

حرائقك لم تتجاوز سجائرك.
سرقت جبلاً.
أحسنت في اختيار ما يمكن أن يخبأ بسهولة، ويصعب العثور عليه.
دخنت سيجارة في مكان عام محظور فيه التدخين.
هذه جريمة عقابها الشنق لا السجن فقط.
لن أتكلم ما دمت لا تصدقني وتسخر مني.
خير ما تفعله هو أن تسكت حتّى ننام.
سأسكت حين تسكت.
سأسكت وستسكت.
تعوّدت طوال حياتي ألاّ أسكت، ولن أسكت.
لا تسكت، ولن تخرج من السجن، وستصبح صديقاً قديماً يحتاج إلى مساعدتي، ويظفر بها.
سأسكت حين تخبرني عن سبب سجنك.
قتلت.
ومن قتلت؟
شجرة.
وقتلتها بالفأس أم خنقاً؟
أطلقت عليها النار من مسدسي.
وماتت؟
مات الرجل الذي كان يلصق ظهره بها.
ومن هو ذلك الرجل السيئ الحظ؟
صديق قديم.

الحمد لله لأنّي لست واحداً من أصدقائك القدامى.

كان صديقاً لا يحلو له الحديث إلاّ عن طلبه للموت وحبّه له، ولكنّه كان جباناً لا يمتلك الشجاعة المطلوبة، ويحتاج إلى من يساعده، ولم يكن أوّل من ساعدته.

وكنت طبعاً الصديق وقت الضيق.

الحياة بغير أصدقاء لا تطاق.

كأنّك تفكر.

أفكر في ربطك بحبل.

ولماذا ستربطني؟

سأرميك في النهر.

أنا لا أعرف السباحة.

حتى لو كنت أحسن سبّاح، فلن تستطيع أن تسبح وأنت مربوط القدمين بالحبل.

إذن سأغرق وأموت.

ستغرق وتموت، وهذا هو المطلوب.

ما دمت تبغي موتي، فلا داعي إلى أن تتعب. أعطني سكيناً، وسأتولى قتل نفسي.

أتظنّ أنّي أبله؟ إذا أعطيتك السكين، فقد تقتلني بدلاً من أن تقتل نفسك.

أعطني حبلاً لأشنق نفسي وأموت موتاً لطيفاً لا يسبب لك أيّ تعب.

ومن سيحفر الحفرة لجثتك؟

ما رأيك في أن تصبّ عليّ كثيراً من البنزين وتحرقني ولا يتبقى مني ما يصلح للدفن؟

لا لا. التعامل مع النار ليس دائماً مأمون العواقب.

اقتنعت الآن بأنّ الموت غرقاً هو فعلاً أجدى موت. سيأكلني السمك، والسمك سيأكله الناس، ولكنّ من يتقرر موته يسأل عادة عن آخر ما يتمنى نيله.

ماذا تتمنى؟

أن تعصب عيناي بقماش أسود.

ستنال ما تريد إذا عثرت على قماش أسود.

هل ستربط قدميّ أيضاً بالحبل؟

كيف سنصل إلى النهر إذا كنت مربوط القدمين؟

ألا ترى أنّه لا يليق أن أمشي حافياً؟

ما هذا الدلال؟ كأنّك لم تكن طوال حياتك حافياً.

ولكنّ المناسبة بالنسبة إليّ مهمة ولا تتكرر مرتين وتستحق بعض التدليل.

ألا تلاحظ أمراً شاذاً؟ أنت تضحك كأنّك لست الذي سيموت، وأنا عابس الوجه كأنّي أنا الذي سيموت؟

من الطبيعي أن تعبس وتحزن لأنّك ستصبح قاتلاً.

سأسمح لك بتدخين سيجارة قبل أن نذهب إلى النهر.

ومتى سنذهب إلى النهر؟

حين يطلق سراحنا ونغادر السجن.

أف! سنموت مللاً.

لن تملّ إذا حكيت لك بعض ما جرى لي.

احك، فلن تجد مستمعاً صبوراً مثلي.

يعلم الله أنّي لا أكذب إلاّ قليلاً، ويعلم الله أنّي لا أقتل أحداً إلاّ بعد أن أساوم على أجري وأنال أعلى أجر يمكن أن يظفر به، وقد قتلت زعماء ووزراء وجنرالات وزوجات وسماسرة ورجال أعمال، وكلّ من قتلته، قتلته لقاء أجر محدد سلفاً ولم أسأل إلاّ عن اسمه ما عدا رجلاً قررت قتله مجّاناً وكنوع من الزكاة. وقد اتخذت قراري يوم استمعت إليه يخطب في حشد من الناس بفم كبير مفتوح تتدفق منه الكلمات بيسر وسهولة منمقة بليغة مؤثرة ذكيّة لبقة كأنّ في جوفه معملاً مختصاً بصنعها صنعاً فورياً حين الحاجة. ونفذت قراري يوم عثرت عليه جالساً في سيارته ينتظر سائقه، فنقرت بإصبعي على زجاج نافذة السيارة، ففتح النافذة مستطلعاً، فأمسكت بشعر رأسه، وضربت حنجرته بنصل السكين ضربة جعلت رأسه واهن الارتباط بما بين كتفيه، ثم سرت على مهل، واشتريت أنواعاً من الحلوى يحبّها أطفالي. وفي اليوم التالي نشرت الصحف صوره ممتدحة تواضعه الذي أنقذه من موت محتم، فقد رغب سائقه في تدخين سيجارة، ولم تكن لديه أيّة سجائر، فترجل خصمي من السيارة ليشتري لسائقه السجائر المفضلة لديه، والتي لم يتح له تدخينها. وبعد أيام تألفت وزارة جديدة، ففوجئت بخصمي قد اختير وزيراً للداخلية، فازداد كرهي له، وكمنت له في إحدى الليالي، وأطلقت عليه سبع رصاصات، لم تطش واحدة، وتوزعت كلّها بين قلبه ورأسه، ولكنّي علمت فيما بعد أنّ رصاصاتي خلّصته من زوجة عتيقة ودميمة. وجرت في البلاد انتخابات عامة لبرلمان جديد، فإذا خصمي يفوز في الانتخابات فوزاً ساحقاً، وانتخبه النواب رئيساً لهم، فوضعت تحت كرسيه في البرلمان قنبلة موقوتة سيكون انفجارها كانفجار قنبلة نووية صغيرة،

وانفجرت القنبلة في الوقت المحدد تحت كرسي رئيس البرلمان، وعدت إلى بيتي منتشياً، ونمت نوماً هانئاً، واستيقظت في الصباح فرحاً نشيطاً، فإذا الخبر الأوّل في نشرات الأنباء الإذاعية عن انفجار قنبلة في البرلمان ومصرع العديد من النواب ونجاة خصمي من الموت لأنّه فارق كرسيه قبل ثوان من الانفجار ليغسل يديه، ولم يمسه أيّ أذى بفضل حبّه للنظافة، فلم أتخلّ عن تصميمي على قتله، وشرعت في التخطيط لاغتياله مرة رابعة.

وهل وفقت في اغتياله؟

اعتقلت قبل أن أحاول اغتياله وسجنت لأنّي تحرشت بامرأة تسير في الشارع تحرشاً اعتبرته المحكمة منافياً للحشمة.

يجب أن تخجل من فعلتك وتندم.

ومن قال إني لم أخجل ولم أندم؟

٣٣

طيران المتعبين

دهم عيسى تعب لا مسوّغ له، وصاح فجأة مرتاعاً حين ابتدأ جناحان قويّان ينبتان في ظهره، فابتسمت زوجته، وقالت له بمرح: «تستطيع الآن الذهاب إلى متجرك طائراً وتعود إلى البيت طائراً وتوفّر ثمن بنزين السيارة».

فقال عيسى لزوجته: «وإذا طرت، فمن يضمن لي ألاّ أقع ويتحطم رأسي؟ وكيف أعمل وأستقبل الزبائن وأساومهم وأنا بجناحين؟ ماذا سيقول الناس عنّي؟ ستأكلني عيونهم وأفتضح شرّ فضيحة. أنا رجل غنيّ، ولديّ من المال ما يكفيني ويكفي أولادي وأحفادي، ولن أغادر البيت إلا حين يختفي هذان الجناحان».

ولازم عيسى بيته حتى مات ومن غير أن يتجرأ يوماً على تجربة جناحيه في الطيران، ولكنّ أولاده وأحفاده كانوا مختلفين عنه، ولم يحاولوا تقليده يوم امتلكوا الأجنحة.

وكان آدم واحداً من هؤلاء الأحفاد الذين افتقروا، وقد عاد إلى البيت شاحب الوجه، زائغ النظرات، وأخبر زوجته أنّه طار من شركة إلى شركة ومن مصنع إلى مصنع باحثاً عن عمل حتّى تعب

وحطّ على غصن شجرة تفّاح، فطلب إليه مالك الشجرة والحقول الفسيحة المحيطة بها أن يساعده في قطف ما نضج من التفّاح، فقالت له زوجته بصوت فرح: «ها أنت وجدت عملاً. كم أعطاك أجراً؟».

قال آدم: «لم يعطني أيّ أجر، ولوّح بعصاه مهدداً، فإمّا أن أساعده مجّاناً، وإمّا أن أترك شجرته قبل أن تتكسر أغصانها تحت ثقلي».

قالت الزوجة: «وماذا فعلت؟».

قال آدم: «طرت من شجرة إلى شجرة، ولم أترك تفاحة ناضجة إلاّ وقطفتها».

قالت الزوجة: «وكيف سندفع إيجار البيت في آخر الشهر؟».

قال آدم: «لن يأتي آخر الشهر».

قالت الزوجة: «وكيف نأكل؟».

قال آدم: «سنتعلّم أن نحيا بغير أن نأكل».

ونجح آدم وزوجته في أن يستمرا في الحياة بلا طعام، وأنجبا أبناءً لا معد لهم.

٣٤

العضّاض

حاول حسني تهدئة غضب أبيه وأمّه وإخوته على كلبه المدلل، فقال لهم: «لا داعي إلى الصياح. الكلب كلبي، وسترون كيف أؤدبه».

وجرّ حسني كلبه الى غرفة أخرى، وقعد على أحد الكراسي محدّقاً إلى الكلب بغيظ، ثمّ قال له بصوت متهدج: «ماذا أفعل بك؟ جننتني. لم تدع أحداً يفلت من شرّك. حتّى أبي عضضته اليوم».

فتكلّم الكلب، وقال لحسني بنزق: «أنت تحرجني بكلامك وتجبرني على أن أحنث بوعدي لخالقي بألاّ أتكلّم. أبوك المحترم لم أعضّه إلاّ لأنّي سمعته يقول عنك إنّك غبيّ».

قال حسني: «ومن قال إنّي ذكيّ؟ أنا فعلاً غبيّ، وأبي لم يكذب».

قال الكلب: «وأمّك تقول دائماً عنك إنّك كنت أبلهاً يوم تزوجت وأبلهاً يوم طلّقت».

قال حسني: «أمّي تستحق أن تُقبل يدها مئة مرة لهذا الرأي الصائب الحكيم».

قال الكلب: «وأصدقاؤك الأعزاء لم أعضّهم وأنبح عليهم إلاّ لأنّهم يسخرون منك كلّما خرجت من الغرفة».

قال حسني: «إذا لم يسخر الصديق من صديقه، فممن سيسخر؟ سامحك الله وعافاك من جهلك».

قال الكلب: «إذا ظللت تتكلم هكذا، فأنت وحدك المسؤول إذا هاجمتك وعضضتك».

قال حسني: «أتعلم أن فرحي الآن لا يوصف؟».

قال الكلب: «وما سبب فرحك؟».

قال حسني: «لم أعد محتاجاً إلى أيّ صديق، فأنت منذ اليوم صديقي الذي أحادثه ويحادثني ونتعاون معاً في السراء والضراء».

قال الكلب: «أنتعاون على العضّ أم النباح؟».

قال حسني: «ستتجول كلّ يوم في الحيّ، وتنصت لكلّ ما يقوله الناس من كلام، وترجع إليّ، وتخبرني به، فتتجمع لديّ معلومات قيّمة، أبيعها للراغبين فيها بسعر باهظ. أمّا المعلومات عن النساء، فسأعرف كيف أستغلها أذكى استغلال لإرغامهنّ على الركض حافيات إلى سريري».

فانقضّ الكلب على حسني انقضاضاً صاعقاً مباغتاً، وعضّه عضّة مؤلمة وهو يقول له: «ليتني كنت مصاباً بداء الكلب!».

وهرب الكلب إلى مكان مجهول لم يهتد إليه حسني على الرغم من بحثه الطويل، ولمّا قنط من العثور عليه، اقتنى كلباً آخر، وحاول إغراءه بالكلام، فأخفق، ولكنّه لم يستسلم لليأس، وظلّ واثقاً بنجاحه.

٣٥

أقفاص مفتوحة الأبواب

﴿مرح النهار ومرح الليل﴾

نظر الأب الهرم المريض إلى شمس النهار الآفلة بعينين آسفتين، ودعا أبناءه الثلاثة الشبّان، وطلب إليهم الاقتراب منه والتجمّع حول سريره، ثم قال لهم بصوت واهن كئيب: «دنا يوم الرحيل الذي سيريحكم من نصائحي التي لم يتبق منها سوى نصيحة واحدة هي ألاّ تختلفوا بعد موتي وتتفرقوا، وأن تكونوا دائماً متعاونين متحدين متضامنين في السراء والضراء».

فوعده أبناؤه بإطاعته مثلما اعتادوا، وعاهدوه على العمل بنصحه، فابتسم راضياً، وأغمض عينيه، ومات، فحزن أبناؤه الحزن الشديد، وسارعوا إلى العمل بآخر نصائحه، وتعاونوا معاً على حمل جثته من سريره ووضعها على الأرض، واستأجروا في الليل امرأة، انقضت عليها أيديهم، وعرّتها من ثيابها، وقذفت بها إلى السريرالعريض الذي امتحنت قوته الامتحان العسير.

وفي آخر الليل، تمطت المرأة مبتهجة، وشكرت للأب نصحه، وحضّت أبناءه الثلاثة على المزيد من الطاعة له.

وفي الصباح، سار الشبّان الثلاثة في جنازة أبيهم واجمي الأعين، وبكوا وهم يرونه يتوارى تحت التراب، ثمّ غادروا المقبرة، وساروا في الشوارع بخطى متعجلة حتّى بلغوا سوقاً مزدحمة بالبائعين والمشترين، وهناك أحاطوا بشيخ وقور يمشي الهوينا، وسألوه عن فوائد الهمبرغر الذي يباع في مطاعم مقدونالد، فأجاب الشيخ أنّه يشفي من الأمراض ويطيل الأعمار، فضحك الشبّان مؤكّدين أنّهم لا يريدون إلاّ ما يطيل ما هوّ قصير لديهم، فاحمر وجه الشيخ خجلاً وحنقاً، وتوعدهم بسوء المصير لأنّهم لا يحترمون الرجال الصالحين ورثة الأنبياء، فلم يكترثوا له، واستمروا في ضوضائهم المرحة، ولكنّهم عندما أتى الليل واستسلموا للنوم العميق، شاهدوا في أثناء نومهم حلماً واحداً رأوا فيه رجالاً أكثر عدداً من أوراق الشجر ذوي لحى سود طويلة مشعثة، يتجمعون في كتلة واحدة متلاصقين، ويتحوّلون ذئباً واحداً بحجم سحابة، يطلق عواءه المديد الوحشيّ، وينقضّ عليهم، فيعجزون عن الفرار، وتمزق الأنياب والمخالب أعناقهم، فيفيقون من سباتهم مرعوبين، وينصتون مرتجفين لأصوات المؤذنين الشبيهة بصوت أبيهم تدعوهم بإلحاح إلى صلاة الفجر، وينتظرون شمس الصباح لتعيد إليهم مرحهم.

﴿العشّاق﴾

قال لها إنّه كان ينتظرها منذ أن ولد، فقالت له إنّهما تواعدا على الالتقاء في الساعة الثالثة بعد الظهر، وانتظرته من الساعة الثالثة حتّى الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة بينما المحبّ الصادق لا يتأخر مثلما تأخر، فقال لها إنّ سبب تأخره يرجع إلى أنّه جاء مشياً على القدمين لأنّه لم يجد مكاناً له في الباصات المزدحمة، فقالت له إنّ منْ يحبّ حقّاً لا يبالي بأيّة عقبات ويستطيع أن يسبق أسرع سيّارة.

وعندما جلسا في المطعم، نظر إليها بإعجاب، وقال لها إنّها تزداد جمالاً كلّما ضحكت، فضحكت، وقالت له إنّ جمالها لن يزداد إلاّ حين تأكل وتشبع.

وسارا في الشوارع رجلاً متخماً وامرأة شبعى متعانقي الأيدي، يحثّان خطاهما نحو بيت صغير ذي باب يغلق بإحكام.

وقال لها وهما مستلقيان على السرير إنّ النهار حارّ وسيزداد حرارة حين تبعد عنها ثيابها، فضحكت بمرح، واتهمته بالكسل، فقال لها إنّه لن ينكر ما اتهمته به لأنّه يفضلّ المطاعم التي تقدم له الطعام بغير تعب، فقالت له إنّه كالقاعد تحت الشجرة، يفتح فمه منتظراً أن تسقط فيه الثمار، ففتح فمه، ولم يطل انتظاره.

وسخرت منه زاعمة أنّ رائحته رائحة ثوم، وسخر منها زاعماً أنّ رائحتها رائحة بصل، ولم تتشاجر الرائحتان، وامتزجتا بكثير من اللهفة.

أوصلها إلى بيتها، وذهب إلى المقبرة، ووقف أمام قبر أمّه محني الرأس خاشعاً، فوبخته أمّه لأنّه أتى إلى زيارتها وهو مخمور، وذكّرته أنّ نار جهنم ستكون نصيب السكارى، فقال لها إنّه سيبتهل إلى الله أن يميته في شتاء بارد طويل، وقال لها إنّه لم يتزوج بعد، ولكنّها قد تصبح جدّة بعد تسعة أشهر، فأغمضت أمّه عينيها مرتاعة، وماتت مرة ثانية.

﴿العميان﴾

أمر الشيخ محمود تلاميذه الصغار بالذهاب إلى النافذة والنظر إلى السماء، فتراكض التلاميذ نحو النافذة، فسألهم الشيخ محمود: «ماذا ترون في السماء؟».

قال التلاميذ: «طائرة تطير».

قال الشيخ محمود: «انظروا جيّداً. ماذا ترون أيضاً؟».

قال التلاميذ: «نرى غيوماً وشمساً».

فقال الشيخ محمود متسائلاً بإلحاح: «ماذا ترون أيضاً غير الشمس والغيوم والطائرة؟».

فحدّق التلاميذ إلى السماء، وقالوا بثقة: «لا شيء غير الشمس والغيوم، والطائرة اختفت».

فقال لهم الشيخ محمود بصوت مملوء بالغيظ: «لا فائدة فيكم. كأنّي أعلّم عمياناً لا يبصرون».

وعندما خرج التلاميذ الصغار من المدرسة، ساروا في الشوارع وهم يتخيّلون أنّهم متسولون عميان يطرقون كلّ الأبواب مستجدين، فلا يفتح لهم أيّ باب، ونظروا إلى السماء، فلم يروا إلاّ الغيوم والشمس.

﴿قهوة الصباح﴾

خرج حسن من بيته ناقماً لأنّ زوجته ظلت نائمة، ولم تقدم له طعام الإفطار وقهوة الصباح.

وخرج حسين من بيته ساخطاً لأنّ أولاده الصغار أكلوا كلّ ما في البيت من طعام ولم يشبعوا.

وتلاقى حسن وحسين في مقهى اعتادا التردد إليه كلّ صباح، وجلسا عابسين على كرسيين متقابلين.

قال حسن: «ما رأيك في أن نسطو على بنك وندفن من يريد دفننا؟».

قال حسين: «الجواب معروف».

قال حسن: «ولكنّ البنك قد يكون محروساً جيّداً، ويطلق حراسه النار علينا من مسدساتهم وبنادقهم».

قال حسين: «وسيصيبنا كلّ رصاصهم ونموت».

قال حسن: «وسنموت قبل أن نصل إلى المستشفى».

قال حسين: «سنموت ونستريح».

قال حسن: «سنموت ونستريح».

عندئذ زال العبوس عن وجهي حسن وحسين، ونادى حسن الجرسون بصوت مرح طالباً منه قهوة الصباح على عجل.

٣٦

المحسودة

قالت ازدهار لزوجها بينما كانا يتناولان طعام الإفطار: «جارتنا خديجة حبلى في الشهر الخامس».

قال الزوج: «ولكنّ زوجها مسافر منذ أكثر من سبعة أشهر».

قالت ازدهار:«كأنّك نسيت أنّ الله قادر على كل شيء».

قال الزوج: «اللهم نسألك الستر. المسألة ليس فيها ما يقال. امرأة صبيّة وجميلة.. كيف ستحبل وحدها إذا كان زوجها مسافراً؟».

قالت ازدهار: «سأسأل خديجة عن هذا الموضوع حين أزورها اليوم».

قال الزوج: «أنصحك بعدم التدخل في ما لا يعنيك».

قالت ازدهار: «النبي صلى الله عليه وسلم أوصانا بسابع جار، وخديجة هي أوّل جار، وليست سابع جار».

وزارت ازدهار جارتها خديجة، وسألتها وهي تبتسم بمكر: «كم شهراً مضى على سفر زوجك؟».

قالت خديجة: «سبعة أشهر وتسعة أيام».

قالت ازدهار: «وكم شهراً انقضى على حبلك؟».

قالت خديجة: «أربعة أشهر وخمسة أيام».

قالت ازدهار: «وكيف حبلت ما دام زوجك غائباً عن البيت أكثر من سبعة أشهر؟».

فلم تجب خديجة، فقالت لها ازدهار: «تكلّمي. نحن جيران، وكلّ كلمة ستقولينها سأدفنها في بئر عميقة لتظل سرّاً لا يعلم به أحد».

قالت خديجة: «ما سأقوله ليس سرّاً، ولا يهمني إذا علم به كلّ الناس، ففي إحدى الليالي كنت نائمة، فرأيت أنّ زوجي عاد من سفره، وما إن فتحت له باب البيت مرحّبة به حتّى سارع إلى الدخول وأغلق الباب خلفه واحتضنني بقوة أوجعتني، وقال لي إنّه اشتاق إليّ».

قالت ازدهار: «أنت محظوظة، فزوجي حين يعود من السفر لا ينطق بكلمة ويبادر إلى النوم كالبغل، ويظلّ نائماً يومين بحجّة أنّه تعبان».

قالت خديجة: «ولم ينتظر زوجي حتى نصل إلى غرفة النوم، وألقاني على الأرض خلف باب البيت، ولم يبال بممانعتي. وبعد شهر تبين لي أنّي حبلى».

ولمّا عاد زوج ازدهار مساء من عمله، واجهته زوجته عابسة الوجه، وروت له ما جرى لجارتها خديجة مع زوجها المسافر الذي زارها وهي نائمة، فقال الزوج: «لا حول ولا قوة إلاّ با لله العليّ القدير الذي سيحاسبنا لأننا شككنا في جارتنا المسكينة وظلمناها».

فقالت ازدهار وقد ازداد عبوس وجهها: «الدنيا فعلاً حظوظ،

والحسد لا يجوز، ولكنّي أحسد جارتنا خديجة على هذا الزوج الذي لا ينسى أنّه زوج سواء أكان في البيت أم كان مسافراً».

فحنى الزوج رأسه، ولم يحاول النظر إلى زوجته.

٣٧

المرشد

رغب مسعود في الخروج من البيت ليتمشى قليلاً في الشوارع، فنصحه صديقه الجنيّ المقيم معه بارتداء المعطف، فقال مسعود للجنيّ: «لا أحد يرتدي المعطف في أيام الصيف، فهل تريد أن يقول الناس عنّي إنّي مجنون؟».

قال الجنيّ: «بعد سبع دقائق بالضبط، سينهمر المطر غزيراً».

فلم يصدّق مسعود ما قاله الجنيّ، فالسماء كانت زرقاء صافية، ولا وجود فيها لأيّة غيمة، ولكنّ رغبته في مغادرة البيت تلاشت، وجلس قرب النافذة يحملق واجماً إلى السماء، فإذا هي تتبدل فجأة وتظلم وتمتلىء بالسحب السود، ويهطل المطر غزيراً.

وأراد مسعود مشاهدة فيلم ابتدأ التلفزيون بعرضه، فقال له صديقه الجنيّ: «لا تتفرج على هذا الفيلم، فمن يره لا نجاة له من صداع مؤلم».

فلم ينصت مسعود لنصحه، وشاهد الفيلم، وعانى الكثير من أوجاع الصداع.

واتصل مسعود هاتفياً بامرأة يحبّها وتحبّه، واتفقا على الالتقاء في

بيته بعد أقلّ من ساعة، فقال له صديقه الجنيّ: «ابتعد عنها واقطع صلتك بها حتّى لا تندم في المستقبل، فهي مخادعة كاذبة لا تحبّك، ولا تحبّ سوى نفسها».

فسأله مسعود: «وماذا أفعل حتّى تحبّني؟ إنّي أحبّها ولا أستطيع الابتعاد عنها».

قال الجنيّ: «قد تحبّك إذا سمحت لي بالامتزاج بك ومساعدتك حين تأتي».

قال مسعود: «ألا توجد وسيلة أخرى؟».

قال الجنيّ: «ليس هناك أيّ وسيلة أخرى حسب معلوماتي».

وما إن جاءت المرأة في الموعد المتفق عليه حتّى هجم الجنيّ ومسعود عليها، فقالت المرأة لمسعود مدهوشة: «من أين لك هذا؟ أيّ مقوّ أخذت؟ ماذا بك؟ كنت في العادة تضيّع كلّ الوقت في الثرثرة عن العواطف».

وظلّت المرأة تطلق صيحات الدهشة طوال ساعات، واعترفت لمسعود وهي تلهث منهوكة أنّ هذا اليوم هوّ أوّل يوم تتأكّد فيه أنها تحبّه، وستنتحر إذا ما خطر له يوماً هجرها، فتوقع مسعود أن يعلّق صديقه الجنيّ على ما قالته، ولكّنه ظلّ صامتاً، فابتسم مسعود، وقال لنفسه: لعلّه تعب ونام، وعزم على شكره حين يستيقظ، فهو ليس من العاقين ناكري الجميل، ولكنّه في صباح اليوم التالي نسي ما عزم عليه، وعندما كان يهمّ بمغادرة البيت، قال له صديقه الجنيّ: «لا داعي إلى أن تذهب إلى العمل ما دام لن ينفعك. ستحيا فقيراً وتموت فقيراً».

فلم يذهب مسعود إلى العمل، ولم يحاول يوماً أن يعمل، فصديقه الجنيّ لا يكذب.

٣٨

صباح الخير

أفاق سليمان من نومه في الصباح الباكر ليباغت بأنّ كلّ ما في غرفته يتكلم عنه، فظلّ مغمض العينين حريصاً على ألاّ تبدر منه أيّة حركة حتّى يتاح له معرفة كلّ ما يقال عليه.

قال أحد الجدران: «أهو نائم أم ميت؟».

قال جدار آخر: «لا فرق سواء أكان نائماً أم ميتاً أم مستيقظاً يركض في الشوارع».

قال جدار ثالث: «كلّما دخل الغرفة اقتنعت بأنّ عددنا ازداد وصرنا خمسة جدران».

قال السقف: «الحشمة مطلوبة. لماذا ينام عارياً مع أنّ الفصل ليس صيفاً؟».

قال الكرسي القابع خلف الطاولة: «أتذكرون ماذا فعل قبل أيّام عندما أدخل امرأة خلسة الى الغرفة؟ جلس يحملق إليها كالمتسول الجائع ويحادثها بتهذيب جمّ وصوت مرتجف ولم يحاول أن يخلع حتّى ربطة عنقه».

قالت الطاولة: «في يوم الامتحان لا يكرم المرء ويهان».

قالت خزانة الثياب الخشبية: «لم أعد أطيق هذه الحياة، وأتمنى أن أشيخ بسرعة وأتحوّل خشباً مسوساً لا يصلح إلاّ للحرق في المدافىء».

قالت مرآة الخزانة الخشبية: «لا يغيظني سوى أنّه مغرم بالنظر إليّ والابتسام معجباً بما يراه».

قال التلفزيون: «لست بخيلاً، ولكنّه لا يطرب إلاّ للأفلام الملأى بالدموع والآهات».

قال المشط: «كأنّه أعمى. لم يتنبه بعد إلى أنّ الشعر الأبيض في رأسه صار أكثر من الشعر الأسود».

قال أحد الأقلام: «لو لم أكن أعاني ضعفاً في الذاكرة لحدثتكم طوال أشهر عمّا يكتبه في رسائله الى النساء من سخافات تنشّف الدم في العروق».

قالت فرشاة الأسنان: «لا يملّ من الحديث عن الحبّ ولا يحبّ أحداً، ولا يملّ من الحديث عن الزواج وإنجاب الأبناء ولا يتزوج».

قال السرير: «أرجوكم أقنعوه بتخفيف وزنه».

وفي تلك اللحظة فتح باب الغرفة، فصمت فوراً كلّ ما في الغرفة، وبادر سليمان إلى تغطية جسمه باللحاف بحركة مرتبكة بينما كانت تدخل الغرفة فتاة صغيرة تحمل فنجان قهوة، وتقدمه إلى سليمان وهي تقول له بصوت مرح: «صباح الخير».

فقال لها سليمان وهو يتمطى متثائباً: «قولي لي أوّلاً.. أأنت يا لمى أخت تحرص على إرضاء أخيها؟».

قالت لمى: «ما هذا الامتحان المحرج منذ الصباح؟».

قال سليمان: «إذا كنت محبّة لي فعلاً، فخذي غرفتي وأعطني غرفتك».

قالت لمى: «أنت تمزح معي، فغرفتي ضيقة وغرفتك واسعة».

قال سليمان: «أنا لا أمزح. ما رأيك في أن نتبادل الغرف اليوم؟ سأترك لك كلّ شيء، ولن آخذ سوى ثيابي».

فرحبت لمى باقتراحه مسرورة، وغادرت الغرفة، وتركته وحده يحتسي قهوته على مهل وهو ينظر إلى ما حوله بتشفّ وشماتة.

٣٩

الغروب

﴿١﴾

نظر عليّ إلى المرآة، فرأى فيها رجلاً هرماً، تطلّ من عينيه نظرات بلهاء، محنيّ الظهر، ابيضّ شعره، وهزل جسمه، فقال له بصوت ساخر: «أف! ما هذه الهيئة التي لا تسرّ إلاّ العدو؟!».

فابتسمت زوجته، وقالت له: «ارحم نفسك يا رجل. ستجنّ إذا ظللت تكلّم المرآة».

فقال لها عليّ بحنق بينما هو يهمّ بارتداء ثيابه معتزماً مغادرة البيت: «اطمئني. سأجنّ في الحارة بعيداً عنك».

﴿٢﴾

قال عليّ لأصحابه في مقهى الحارة: «إذا كنت قد بلغت من العمر عتيّاً، فهذا لا يعني أنّي لم أعد أهتم بحارتي وأحوالها، ولا أزال قادراً على أن أرى وأسمع وأتكلم وأقول للأعور إنّه أعور..

سالم الفتّاك رجل وقور، شديد الثقة بنفسه، وصاحب أنف مرفوع

ولسان لا يكفّ عن التباهي بالأخلاق الحميدة وحفاظه على الشرف الرفيع، ولكنّ زوجته تسقط أرضاً ويغمى عليها حالما يهمّ نصف رجل بمسّ بنصرها..

شفيق الحمصاني تاجر محترم في كلّ الأوساط، ولو استطاع لباع المطر قبل أن يهطل، وزوجته عاشقة لكلّ الرجال وتلهث وراءهم ما عدا زوجها، فقد انتهى دوره منذ اليوم الأول لزواجهما، واعتُبر مجرد خزانة مال، مفتوحة الباب دائماً..

نزار الترجمان المثقف العليم بكلّ شيء لا يعلم أنّ زوجته قبيحة وجائعة باستمرار، ولو كانت غنيّة لبددت كلّ أموالها على الرجال القادرين على إطفاء الحرائق..

سليم المعطّر القبضاي الذي يخرج من سجن ليدخل إلى سجن، تزعم أخته أنّها عذراء على الرغم من أنّه لا يوجد ذكر في حارتنا لم يحظ بنصيب منها، ومن المحتمل ألاّ تكون كاذبة، فحياؤها يدفعها إلى الاستلقاء على بطنها كلّما هوجمت وجهاً لوجه..

سمعان الكردي الذي يقال عليه إنّه مربي الأجيال الجديدة، له زوجة ستدخل الجنّة بالتأكيد، فهي مغرمة بالشبان الصغار الذين لم يعرفوا أيّة امرأة إبان حياتهم، ومعظم الشبّان شبّوا ونشأوا وترعرعوا ونضجوا في سريرها، وتستحق بجدارة أن تمنح لقب «الجامعة المفتوحة». زوجها مختص بالقسم العلوي من الجسم، وزوجته مختصة بالقسم السفلي..

عبد الله التركماني الرجل الذي يعلن أنّه وهب حياته كلّها لخدمة مكارم الأخلاق، لا تحبّ زوجته إلاّ الرجل الفظّ النشيط، ولو سمعت أنّ ما تحبّه موجود بكثرة في الصين، لتذكّرت فوراً الحديث

الشريف الذي يحضّ على طلب العلم ولو في الصين، ولسافرت إلى الصين ركضاً وبقدمين حافيتين..

الشيخ جمال الأعمى الذي تُقبل يداه احتراماً لورعه وصلاحه، ويتصرف كأنّ الجنة والنار عقارات شخصية ورثها عن أمّه، اتخذت زوجته من حارس حمام السوق عشيقاً لها كي يسمح لها بالتفرج من كوى سقف الحمام الزجاجية على الرجال وهم يستحمون عراة، فتنتقي من تشاء من دون أن تخشى أن تُخدع أو تُغشّ..

فريد الترّاب الطبيب الذائع الصيت ينظر إلى مرضاه على أنّهم بقرة ينتفع من حليبها ولحمها وجلدها وعظمها، وزوجته تستورد من حيّ سوهو بلندن ما يغنيها عن الرجال، ولا تكتفي باستخدامه وحدها، وتؤجره بأسعار باهظة للواتي يخشين الفضائح ويهربن من الحبَل والقيل والقال..

إياد الصواص محام مهاب وذو جولات مشهورة في ساحات المحاكم، لا يبالي إلاّ بجمع المال كأنّه حاصدة تقتحم أرضاً ملأى بسنابل القمح، ولكنّ زوجته تساومه كلّ ليلة، ولا تقبل بأن يضاجعها إلاّ بعد أن يعطيها المبلغ الذي تحدده رافضة أيّة مساومة وأيّ تخفيض، وتفعل ما اعتادت أن تفعله قبل زواجها..

جعفر الأفيوني رجل متكبر، قاس، كثير المال، اشترط على زوجته ألاّ تخونه إلاّ وهو في البيت حتّى لا يفوته التلصص على ما يحدث، وزوجته مطيعة، وحاولت مرة واحدة أن تتناسى الشرط، فأوشكت أن تطلق..

https://facebook.com/groups/abuab/

سمير الأمين يشبه النساء منظراً وفعلاً وقولاً، ولم تعرف حارتنا عاقّاً

مثله، فهو يتجاهل رجالها، ويصيد رجال الحارات الأخرى، ويدفع لهم أجورهم بكرم لا مثيل له».

وتنهد عليّ بحزن، وختم كلامه بأن قال لأصحابه في المقهى: «هذه هي حارتنا باختصار، وهؤلاء هم رجالها المُتباهى بهم والذين يحظون بالجاه والمال والنفوذ والتبجيل، فهل يستطيع الحجر أن يظلّ حجراً ولا ينطق؟».

﴿٣﴾

شحذنا خناجرنا وسكاكيننا، وانتظرنا في عتمة الليل عودة عليّ المشحّر إلى بيته، ولمّا لمحناه يقترب من باب بيته متوكئاً على عصاه يسعل ويئن، سارعنا إلى تطويقه، وطلبنا إليه بأصوات حانقة أن يخرس ويكفّ عن إطلاق الشائعات البذيئة عن أخلاقنا، فنحن لا نسرق ولا نرتشي، ولسنا خدماً لأحد، فضحك هازئاً بنا وبأخلاقنا، ولكنّه ما إن رآنا نشهر خناجرنا وسكاكيننا حتّى اصفرّ وجهه، وتحشرج صوته، وترنّح كالسكران، وهوى على الأرض ميتاً، فحمدنا الله الذي نجّانا من سفك الدماء وقضاء ما تبقى من عمرنا في المحاكم والسجون. إنّه هوّ القدير الحكيم الذي يميت من يشاء ويحيي من يشاء.

﴿٤﴾

عاد عليّ إلى بيته قبيل منتصف الليل، وقال لزوجته بصوت غاضب: «أتعرفين ما حدث؟ بضعة رجال كانوا بانتظاري قرب البيت حاملين الخناجر والسكاكين لأنّي أحكي للناس ما أعرف عنهم، فصحت بهم صيحة جعلتهم كالخراف في صباح أول يوم من أيام عيد الأضحى، وتجمدوا لحظات حيارى ثم تراكضوا

هاربين، ولكنّهم نسوا على الأرض خناجرهم وسكاكينهم التي كانت قد سقطت من أيديهم لحظة لوّحت لهم بعصاي، وعندما هممت بالاقتراب من باب البيت تعثّرت في مشيتي وسقطت على الأرض سقطة مؤلمة جعلتني أسبّ الدنيا وألعنها».

فقالت له زوجته بصوت متفاخر إنّه كان في أيام الشباب رجلاً يحسب له الرجال ألف حساب، ولا يزال وهو في أيام الشيخوخة رجلاً يُحترم ويُهاب ويُنصت له، فقال لها إنّه تعبان وسئم الحكي ويريد أن ينام، وأشار بيده إليها وإلى باب الغرفة، فعبست الزوجة، وبادرت إلى الخروج من الغرفة صافقة بابها بشدة.

واقترب عليّ من المرآة الطويلة، وحدق إليها، فرأى شاباً ضاحك الوجه ذا شاربين أسودين، فقال له متسائلاً بصوت واهن: «من أنت؟».

قال الشاب: «ألم تعرفني؟ أنا عليّ».

فقال عليّ الطاعن في السنّ لعليّ الشاب: «ساعدني ساعدني لأستلقي على السرير».

وتمدد عليّ الطاعن في السنّ على سريره من دون أن يحاول خلع ثيابه، وسمع عليّ الشاب يخاطبه بصوت هامس: «لا فائدة في التشبث بدنيا ليست لك ولست لها، فالشمس التي تشرق هي نفسها التي تغرب، والنهار يليه ليل والليل يليه نهار، والشجرة التي تهرم لا مكان لها بين الشجر الأخضر».

فازداد تعب عليّ وإعياؤه، وتاق إلى نوم طويل، فأغمض عينيه، ورأى زوجته تدخل الغرفة امرأة في مقتبل العمر، جميلة، شهيّة، تدنو منه وهي تبتسم ابتسامتها الماكرة والساذجة في آن واحد، وتكلّمه، وتلمسه، وتولول مذعورة باكية.

٤٠

يوم طويل

قبضت امرأة تسير في الشارع على يد طفلها الصغير، وقالت له محذّرة: «إياك وأن تفلت يدي وإلاّ ضعت».

وشكر رجال الشرطة الله الرزّاق الكريم إذْ بدأوا نهارهم بالقبض على رجل يعتقد أنّه مطلوب.

قبض رجال الشرطة على رجل طويل القامة.

قبض رجال الشرطة على رجل طويل القامة، مصفرّ الوجه، وزجّوا به في غرفة ملأى بمحققين ذوي وجوه عابسة قاسية ولحى مشعثة.

سنضربك حتى تصيح كخنزير يحترق.

ارحموني.. ثيابي بللها الخوف.

سنطرد أباك من عمله ولن يجد عملاً آخر.

لن يزعل أبي، فقد اشتغل طوال عمره، ومن حقّه الآن أن يستريح.

سنحضر أمّك ونضربها أمام عينيك.

لن تبالي أمي بالضرب، فهيّ متعوّدة ضرب أبي.

قبضنا على أختك الصبية وسنغتصبها أمامك.

ليس لي لا أخت ولا أخ، وأنا الابن الوحيد لأبي وأمّي، ولعلّكم قبضتم على زوجة جارنا المشتكية دائماً من كسل زوجها وحبّه للنوم، والتي تزغرد إذا اغتصبها عشرة رجال وتطلب بإلحاح عشرة آخرين.

سنضربك حتّى تنبح مثل كلب.

سأنبح ككلب حتّى قبل أن أضرب.

وفي تلك اللحظة رأت الأمّ التي تسير في الشارع ممسكة يد ابنها الصغير رجلين يتشاجران ويشهر أحدهما خنجراً محدودب النصل، فشهقت رعباً، وأفلتت يدها يد طفلها الصغير الذي أبعده تواً زحام الناس عن أمّه، واكتشفت بعد ثوان أنّها أضاعت طفلها، فهرولت من شارع إلى شارع باحثة عنه، وتنقلت من مخفر إلى مخفر معطية أوصافه.

واقتاد رجال الشرطة الرجل الطويل القامة إلى غرفة من وصف بأنّه رئيس المحققين وأشرسهم.

طلب المحقق إلى الرجل الطويل القامة أن يغمض عينيه ويتخيّل أيّ شيء.. أمّه.. أباه.. أصدقاءه.. البيت الذي ولد فيه.. المدرسة التي تعلّم فيها.. الشوارع التي اعتاد المشي فيها.. المرأة التي يحبّها، فأغمض الرجل الطويل القامة عينيه، وحاول أن يتخيّل ما طلب إليه، فعجز، واضطر إلى الاعتراف للمحقق بعجزه، فأمره المحقق بصوت خشن صارم أن يتخيّل قطاراً يمرّ فوق جسده، فتخيّل الرجل الطويل القامة قطاراً سريعاً يمرّ فوقه باتراً ساقيه، وصرخ متوجعاً مناشداً التوقف عن تعذيبه، فقال له المحقق إنّ تعذيبه سيستمر ولن يتوقف إلاّ إذا اعترف بكلّ ما اتهم به من جرائم وباح

بكلّ أسماء شركائه اسماً اسماً، فأعلن الرجل الطويل القامة أنّه سيعترف، وسجلت اعترافاته التي أدت بعد لحظات إلى اعتقال رجال ونساء وأطفال وقطط، وتناهى إليه صراخهم المستغيث، فنكّس رأسه، وتخيّل قطارات تدهمه فجأة وتمرّ فوقه قطاراً إثر قطار، وتحوّله لحماً ممزقاً.

وعثر رجال الشرطة في الشوارع على طفل صغير أضاع أمّه، ويبكي خائفاً، وأعادوه إلى أمّه عندما أتت إلى مخفرهم سائلة عن ابنها المفقود، وقد كفّ الطفل عن البكاء لحظة رأى أمّه تقبل عليه لاهثة محمرة الوجه وتعانقه وهي تؤنّبه بصوت مرتعش لأنّه أفلت يدها، ولكنّ ما أحسّ به آنذاك من خوف لم يفارقه حتّى عندما صار رجلاً يسير في الشوارع ممسكاً بيد ابنه الصغير.

٤١

شجر الصحارى

﴿القادر﴾

يأمر أبو حيّان التوحيدي جيوشه باحتلال كلّ مدائن العالم، فتبادر إلى الإطاعة، وتنفذ كلّ ما أمرت به بحماسة ونجاح.

يتذمر أبو حيّان التوحيدي من نسائه، وينصحهنّ بالتواري حالاً عن أنظاره والعودة إلى بيوت آبائهنّ، فتولول النساء ويرتدين الثياب السود.

يطلق أبو حيّان التوحيدي بعض ما يملك من سيارات وطائرات ويخوت، فلا يبقى شارع في العالم يتسع لموطئ قدم وتنتحب الأسماك والطيور.

يغتاظ أبو حيّان التوحيدي من صقيع الشتاء، فيأتي الربيع، ويأبى الرحيل، ويقرر استئجار غرفة تتناسب مع دخله الضئيل.

يطرد أبو حيّان التوحيدي خدمه، فيعمّ الجوع، وتزدهر مهنة حفاري القبور.

يغلق أبو حيّان التوحيدي مصارفه، فتختفي النقود، ولا تُرى إلاّ في المتاحف.

يلطخ أبو حيّان التوحيدي بالحبر ورقاً أبيض يتحوّل عصافير صغيرة تمرح في سماء زرقاء.

ينظر أبو حيّان التوحيدي إلى العشب، فيخضرّ العشب توّاً، ويكفّ عن انتظار المطر.

يرحب أبو حيّان التوحيدي بالنهار، فيزداد سواد الليل، ويخطط للانتحار.

يحزن أبو حيّان التوحيدي بغير سبب، فتشحب أوراق الشجر، وتهجر أغصانها غير آسفة.

يهدم أبو حيّان التوحيدي السجون، ويستخدم صخرها لبناء جبال جديدة يتسلقها التواقون إلى الدنو من الشمس.

يضحك أبو حيّان التوحيدي، فيضحك الناس أجمعون كأنّ الهمّ والغمّ لم يكونا يوماً موجودين.

ينادي أبو حيّان التوحيدي السحب، فتهرع السحب إليه، وتمطر حيث يشاء.

يطلب أبو حيّان التوحيدي إلى النوم أن يأتي مسرعاً، فلا يأتي النوم الذي اشتهر بعصيانه لأوامر الجوعان والمهان.

﴿أحلام أبي نواس﴾

سأشتري سيارة بورش حمراء اللون، وأدخل بها الجنة، فيتضح لي أنّي أخطأت ودخلت جهنّم، فأحاول الخروج، فإذا كلّ الأبواب مغلقة، ويقال لي بهزء إنّ الدخول مسموح والخروج ممنوع، وأرقب

بحسرة سيارتي البورش تحترق من دون أن يهرع رجال المطافىء إلى نجدتها.

سأنظم قصيدة في مديح الخليفة منوّهاً بما يتصف به من محاسن ومزايا، فينصت الخليفة لها ضجراً عابس الوجه ثم يقول لي مؤنّباً: «لقد ضيّعت وقتي في الاستماع لجثة قصيدة، فأنا أعظم من أيّة كلمات».

فألوذ بالسكوت كأنّي جثة باردة.

سأحبّ امرأة لا تحبّني، وأنتحر من أجلها، ويبلغها نبأ انتحاري، فتتثاءب وتقول لمن حولها: «نقص الأغبياء غبيّاً».

سأتحدث إلى الشجر، فيسخر الناس منّي، وأُتهم بالحمق والجنون، فلا أبالي، وأستمر في محادثة الشجر.

سأتحوّل سيفاً يحاول أن يقتل من يبغض، فلا يقتل إلاّ من يحبّ.

سأنشئ مدرسة تحضّ على هدم السجون، فإذا تلامذتها يصبحون خير خبراء في بناء سجون لا يُهرب منها.

سأمتطي صهوة جواد أبيض، يحيّرني حفاظه على لونه الأبيض.

سأقول للشمس كلّ صباح: «صباح الخير».

فلا تردّ الشمس على تحيتي، ولا تتراجع عن منح ضيائها بسخاء لكارهيها.

سأضيّع أيام شبابي في مناداة العواصف، وسأعلم حين أشيخ أنّي كنت أنادي من هو غير موجود.

سأحرق كلّ ما كتبت، وأتناسى أنّي أبرع صياد للكلمات، ولا أندم في أيّ يوم.

سأركض مغمض العينين تحت مطر الشتاء من أوّل الدنيا الى آخرها، ولن أحاول أن أفتح عينيّ.

﴿القصيدة الأخيرة﴾

نظم أحمد شوقي قصيدة طويلة في مديح الخديوي عباس الثاني، فقال له الخديوي: «قصيدتك رائعة لا عيب فيها، ولكنّها تتحدث عن رجل نجهله ولم يسبق لنا أن التقيناه».

قال أحمد شوقي: «التواضع محمود يا مولاي، ولكنّ قصيدتي لا تتحدث عن رجل سواك، وهي أشبه بمرآة تنظر فيها».

قال الخديوي: «لستُ بالذي يخدع ويغشّ، فقصيدتك تتحدث عن رجل نبيل وأنا رجل وضيع، وقصيدتك تتحدث عن رجل يقفز من نصر إلى نصر وأنا رجل هُزم في كلّ المعارك التي خاضها، وقصيدتك تتحدث عن رجل عالم وأنا رجل جاهل مطوّق بالجهلاء، وقصيدتك تتحدث عن رجل ذكيّ وأنا رجل غبيّ يمجد الغباوة».

قال أحمد شوقي: «وقصيدتي يا مولاي تتحدث أيضاً عن رجل كريم معطاء..».

فقاطعه الخديوي قائلاً: «وأنا رجل بخيل شحيح».

قال أحمد شوقي: «لقد نلت الآن أعظم مكافأة يحلم بها شاعر، ويكفي قصيدتي أنّها أغرت مولاي بقول الصدق».

فابتسم الخديوي ابتسامة هازئة، وأمر أعوانه بتصحيح القصيدة، فصححت القصيدة توّاً، وغدت تمتدح الوضيع والجبان والنذل والغبيّ والجاهل، ومن صححها زعم أنّها من نظمه، فكانت شمعة حاولت أن تنير طريقاً مظلمة طويلة.

﴿مختصر ما حدث﴾

حُكم على خليل حاوي بالإعدام، فحدّق إلى السماء متعجّباً من لونها الأزرق الذي لم يتحوّل لوناً أسود، وُشنق ثلاث مرات، فكان الحبل في كلّ مرة يتمزّق على الرغم من أنّ جسمه هزيل وعنقه نحيل، ووقف مشدود القامة مغموراً بضياء الشمس بينما كان سبعة رجال يسددون فوهات بنادقهم نحوه، ويطلقون النار عليه، فلا تمسسه أيّة رصاصة من رصاصهم كأنّهم كانوا عمياناً أو كأنّه كان يبعد عنهم أميالاً، وقُذف إلى نار قادرة على إحراق مدينة بكاملها، وانتظرت عيونهم الشامتة رؤية رماده، ولكنّه خرج من النار سليماً يسعل سعال منْ دخن سيجارة من نوع رديء، ولم يجد مهرباً من الانتحار حتّى يثبت أنّه الناجح و هم المخفقون.

﴿الهشيم﴾

أمر الخليفة المستغيث بالله رجال شرطته بإحضار ابن سكرة في أسرع وقت، فبادر رجال الشرطة إلى تلبية الأمر توّاً، وبحثوا عن ابن سكرة في كلّ مكان من دون أن يعثروا عليه، وأوشكوا أن يقنطوا ويعودوا إلى الخليفة مخذولين مخفقين لولا أن دراسة متأنيّة لإحدى الصور التي التقطتها الأقمار الصناعية كشفت لهم مكان ابن سكرة، فإذا هو مستسلم للنوم العميق في حقل تحت أغصان شجرة، وبقربه حمار من نوع غير مألوف ولا يشبه الحمير الأخرى، فسارع رجال الشرطة إلى القبض على ابن سكرة قبل أن يصحو من نومه ويلوذ بالفرار، فصاح ابن سكرة محتجاً مستنكراً، ولكنّه لم يجد أذناً تنصت له، واقتيد على عجل إلى الخليفة ليمثل أمامه مكبّلاً بالأغلال، فضحك الخليفة، وقال لرجال شرطته بصوت مرح معاتب: «ما هذا؟ طلبت إليكم إحضاره ولم أطلب اعتقاله».

وأمر الخليفة بتحرير ابن سكرة من أغلاله، وقال له: «لا تزعل يا ابن سكرة. أنت دائماً موضع احترامنا وتقديرنا».

قال ابن سكرة: «كنت واثقاً بأنّ الأمور ستصحح لأنّي أحرص دائماً على ألاّ أفعل ما يسوّغ اعتقالي وإهانتي».

قال الخليفة: «أنت تعرف يا ابن سكرة أننا لم نقصّر يوماً في تقديرك خصوصاً بعد أن تبت عن نظم الشعر الماجن الهجائي غير المؤدب».

فقال ابن سكرة: «ينبغي لي أن أعترف بأنّ كلّ الفضل في توبتي يرجع إلى مدير الشرطة الرجل المثقف الذي ناقشني ذات ليلة وأقنعني بالحسنى بخطأ ما أكتبه، وكان والحقّ يقال ذا حجج قوية قادرة على الإقناع السريع، ولم أجد مفرّاً من إعلان توبتي أمامه والتنكر لكلّ ما كتبته بوصفه نزوة حمقاء من نزوات أيام الشباب راجياً من الله وعباده العفو والمغفرة وحسن الختام».

قال الخليفة: «ولم تكن من المرائين المخادعين، وتبت حقّاً التوبة الصدوق، وخصصت كلّ أوقاتك للتأمل والدرس والبحث حتّى نبغت في ميدان الاختراع، واخترعت الكهرباء، فكافأناك حتّى صرت أغنى رجل في البلاد، واخترعت الطائرة، فأمرنا بإطلاق اسمك علىأهمّ شارع، واخترعت دواءً لوهن الشيوخ، فأمسى لا شغل للشيوخ إلاّ التنويه بك والإشادة بعلمك وفضلك، واخترعت المجلات التي تعنى بنشر الأخبار الاجتماعية، فأصبحت صفحاتها خير دليل إلى ما يختبيء في المنازل من نساء فاتنات مجهولات، وصارت سيرة حياتك تدرّس في المدارس والجامعات».

فقال ابن سكرة: «واخترعت أيضاً كرة مجوّفة من المطاط، تركلها

الأقدام وتنطحها الرؤوس ولا تمسّها الأيدي، فشاعت في أرجاء الأرض وانتشرت، وعجزت أكبر العقول عن تأويل تأثيرها ودحر محبيها وأنصارها ومشجعيها».

قال الخليفة: «لا وجود في البلاد كلّها لمن لا يقرّ بنبوغك ونجاحك في اختراع كلّ ما هو مفيد ونافع».

فقال ابن سكرة: «وكلّ ما اخترعته ليس سوى جزء بسيط من واجبي تجاه قومي وأهلي».

قال الخليفة: «وآمل أن تبقى مواظباً على هذا النهج السويّ».

فقال ابن سكرة: «لم يبق لي من العمر سوى القليل القليل، ولكنّي سأخصصه لابتكار كلّ جديد».

قال الخليفة: «ما تقوله الآن يخالف ما ترامى إليّ من أنباء تزعم أنّك تحاول أن تخترع حماراً».

فقال ابن سكرة: «وتلك الأنباء ليست بالكاذبة، ولكنّها ناقصة لأنّي وفقت في الاختراع، وصنعت حماراً لا مثيل له».

قال الخليفة مستنكراً: «حمار؟!».

فقال ابن سكرة: «حمار لا يموت، صنعته من مادة سرّية ابتكرتها، لا هي خشب ولا هي حديد ولا هي فولاذ، وتكفل له ألاّ يصاب بأيّ عطب أو تلف أو اهتراء بينما بقية الحمير لها عمر محدد تنفق بعده».

قال الخليفة: «أعوذ بالله من الحمير. من قال لك إنّ البلاد تحتاج إلى حمير جديدة؟ ألاّ تعلم أنّ الحمير توشك أن تصبح أكثر عدداً من الناس؟!».

فقال ابن سكرة: «ولكنّ الحمير كما يعلم مولانا تحتاج يوميّاً إلى

علف بينما الحمار الذي صنعته لا يحتاج إلى أيّ علف، ولا ينهق إلاّ حين يؤمر».

قال الخليفة: «أنت يا ابن سكرة تضيّع وقتك وعلمك في ما لايجدي».

فقال ابن سكرة: «إنما الأعمال بالنيّات».

قال الخليفة: «من يخترع حماراً ليس من العسير عليه أن يخترع إنساناً».

فقال ابن سكرة: «ولكنّ البلاد تشكو من كثرة السكان».

قال الخليفة: «البلاد لا تشكو إلاّ من قلّة السكان غير الجشعين الواعين المخلصين المحبين المطيعين لأولي أمرهم».

فقال ابن سكرة: «إذا نجحت في اختراع ما اقترحته عليّ، فحتّى الهواء سيفقد، ولن تقوى الأرض على حمل ما يدبّ فوقها».

قال الخليفة: «كلّ داء له دواء. أنسيت أنّك حين تشتري جورباً جديداً تبادر إلى التخلّص من الجورب العتيق؟ لا تقلق يا ابن سكرة، وافعل ما هو مطلوب منك، وسأفعل ما هو مطلوب مني».

فقال ابن سكرة: «ليس لي سوى أن أحاول، فإمّا النجاح، وإمّا الاخفاق».

ولم يوفق ابن سكرة في اختراع ما هو مطلوب منه ومات مقهوراً مدحوراً، ولكنّ الخليفة المستغيث بالله لم يتوقف عن التخلّص مما يسمّيه بالجوارب العتيقة.

٤٢

نهار المفاجآت

ازداد ضجري من زوجتي التي اعتادت منذ سنين أن تضمّ إلى صدرها طفلاً رضيعاً لا يكبر، تناغيه بأرقّ الكلام، تراه وحدها، ولا يراه أحد غيرها، وخرجت من البيت من دون أن تودعني، وذهبت لمشاهدة سباق للخيول حظي بدعاية كبرى، ودوّى طلق ناريّ، وابتدأ السباق، وركض حصان واحد بنيّ اللون وسط تهليل الناس، بعضهم راهن أنّه سيفوز، وبعضهم الآخر راهن أنّه سيخسر.

وبدا الحصان كأنّه تعب، وتباطأ ركضه، وتعالت صيحات الناس المستنكرة، ولكنّها تحوّلت بعد ثوان صيحات إعجاب وتشجيع عندما عاود الحصان ركضه السريع كأنّ بطأه خطّة غايتها العبث بمشاعر المشاهدين، وبلغ خطّ النهاية وتجاوزه، فغادر الناس ميدان السباق، بعضهم مبتهج، وبعضهم آسف، ولم أحزن أو أفرح لأنّي لم أشارك في الرهان.

وذهبت لمشاهدة مباراة في كرة القدم، فرأيت لاعباً واحداً يركض ملاحقاً الكرة، ويراوغ يمنة ويسرة، وتطوح قدمه فجأة بالكرة

لتدخل المرمى الأوّل ثم يسدد الكرة بعد قليل إلى المرمى الثاني، وتكررت الأهداف، ولكنّ المباراة انتهت بالتعادل، وغادر الناس الملعب فرحين بهذه النتيجة العادلة.

وذهبت لمشاهدة مباراة في الملاكمة، فإذا ملاكم واحد غليظ العنق، مفتول العضلات، يتواثب على الحلبة منتظراً بدء المباراة بفارغ الصبر، وما إن أعلن الحكم بدء الجولة الأولى حتّى انقضّ الملاكم على خصم لم أره، وانهال عليه بلكمات سريعة قويّة متتالية، وختمها بلكمة عنيفة من قبضته اليمنى، فبادر الحكم إلى إيقاف المباراة، وأعلن انتصار الملاكم على خصمه بالضربة القاضية في الدقيقة الأولى من الجولة الأولى، فرفع الملاكم قبضتيه إلى أعلى مزهوّاً بانتصاره، فصفقت له بحماسة آملاً له الظفر في مباريات أخرى، وغادرت مكان المباراة، وسرت بخطى سريعة في الشوارع الموصلة إلى بيتي، ولمّا اقتربت منه، استوقفني أحد جيراني، وسألني عمّا إذا كنت أعرف أين بيته، فأجبته بأنّي أعرف موقع بيته، فطلب إليّ بصوت متلعثم أن أرشده إلى بيته، فقلت له: «ثاني بناية».

سألني: «على اليمين أم على اليسار؟».

قلت: «على اليسار».

قال: «وأيّ طابق؟».

قلت: «الطابق الثاني، وما عليك إلاّ أن تقرع الباب، فتفتح لك الباب أم محمد، وتقول لك: أهلاً وسهلاً».

قال: «ومن هي أم محمد؟».

قلت: «زوجتك».

قال: «ومتى تزوجت؟».

قلت: «إسأل أم محمد».

قال: «ومن هي أم محمد؟».

قلت: «زوجة أبي محمد».

قال: «ومن هو أبو محمد؟».

قلت: «أنت أبو محمد».

فبهت أبو محمد، وشكرني بحرارة، فتركته، وتابعت سيري نحو بيتي القريب، وعندما وصلت إليه، فتشت في جيوبي عن مفتاح البيت، فلم أجده، فضغطت بإصبعي على زرّ جرس الباب ضغطات قصيرة متسارعة كعادتي حين أنسى المفتاح في البيت، ففتحت زوجتي الباب، ونظرت إليّ باستنكار، وقالت لي: «اليوم ليس لدينا زبالة».

فقلت لزوجتي: «وهل الزبّال يرتدي بدلة إيف سان لوران وكرافتة شارل جوردان؟».

قالت زوجتي وقد ازداد وجهها عبوساً: «الزبّال اليوم يربح أكثر من الطبيب».

فقلت لها: «كفّي عن المزاح، فأنا أكاد أموت جوعاً».

فصفقت زوجتي الباب في وجهي وهي تقول لي:«أخطأت في العنوان. هنا بيت، وليس مطعماً».

فعدت إلى الشارع، ووقفت محتاراً، فلمحت أبا محمد يحوص بخطى مضطربة، فدنوت منه، وسألته: «أبو محمد..كنْ صريحاً وخبّرني.. هل هيئتي هيئة زبّال؟».

فقال أبو محمد: «لا لا. أنت رجل محترم تسكن في ثاني بناية على اليسار.. في الطابق الثاني».

فسرت بخطى متثاقلة حتى بلغت البناية الثانية على اليسار، وصعدت إلى الطابق الثاني، وقرعت خشب الباب بقبضتي، ففتحت الباب امرأة لا أعرفها، وقالت لي: «الله يصلحك. لن تبطل عادتك وتنسى المفتاح كلّ يوم. ادخل ادخل. تأخرت، والطعام أوشك أن يبرد، وأولادك ينتظرونك، وجنّوا من الجوع». فدخلت بيتاً لم أره في حياتي، ورأيت أولاداً لم يسبق لي أن رأيتهم من قبل، تصايحوا مرحّبين بأبيهم، فلم أتفوه بكلمة، فالطعام يوشك أن يبرد، وإذا برد، فلن يكون طعمه مستساغاً.

٤٣

عندما يأتي المساء

دهش الميّت عندما رأى قبره يكبر فجأة ويتسع لعشرات من الرجال الذين يرتدون الثياب البيض، وتتحوّل ظلمته أنواراً باهرة تغشي البصر، فقال لهم إنّهم تأخروا في زيارته التي كان ينتظرها منذ ليلته الأولى في القبر، ولكنّه كان يتوقع اثنين منهم فقط، فكلّموه بأصوات صارمة عدائية، وطلبوا إليه ألاّ يضيّع وقتهم في الثرثرة، وأن ينصت لأسئلتهم بانتباه وحذر، ويجاوب عنها بصدق، فوعدهم بأن يكون صادقاً كما كان طوال حياته التي قضاها على سطح الأرض.

ـ : «لماذا ترتجف؟ أأنت خائف؟».

ـ : «لا شيء يخيف من مات، ولا سبب لارتجافي إلاّ الغيظ من قبر بلا مدفأة».

(خفت عندما طردت من بطن أمّي، خفت كلّ صباح وكلّ مساء طوال ستين سنة، خفت عندما فحصني الطبيب مقرراً أنّي ميّت، خفت عندما تعالت الولاويل حول سريري، خفت لحظة لففت بالكفن، خفت عندما سجيت في التابوت وودعني أصدقائي بنظرات متشفية تتصنع الحزن العميق، خفت عندما حمل التابوت إلى المقبرة

وأخرجت منه وقذف بي إلى حفرة القبر، خفت عندما تركت تحت التراب وحيداً فريسة للديدان والجرذان).

ـ : «ما دمت تدّعي أنّك لست خائفاً، فلماذا وجهك شاحب؟».

ـ : «حين تتوقف الدماء في العروق عن الجريان، يشحب الوجه ويصفرّ، وهذه حقيقة يتعلمها الطفل في الصفّ الأوّل الابتدائي».

(كان وجهي شاحباً طوال حياتي واستغربه الأطباء، ورثيت له من كثرة ما طاوله الهزء، ولم تعجب به إلاّ أمّي وزوجتي الحمقاء).

ـ : «أكتبت وصيتك قبل موتك؟».

ـ : «كتبت وصية طويلة، ووهبت كلّ ما أملك لعباد الله المساكين».

ـ : «وماذا كنت تملك؟».

ـ : «لا شيء».

(كنت أملك ما كان يملكه غيري ولا يتنبه له: الشمس السماء النجوم القمر العشب الرياح مطر الشتاء).

ـ : «أكان لديك في بيتك كلب؟».

ـ : «لم يكن لديّ سوى قطّ، أدعس على ذيله، فينبح كأشرس كلب».

(كنت أحبّ القطط لأنّها تغضب وتعضّ وتخدش وتسيّل الدماء مع أنّي لا أشبه القطط).

ـ : «أتجيد السباحة؟».

ـ : «تعلّم السباحة لا يفيد، ففي يوم الطوفان يغرق حتّى أبرع سبّاح».

(سيأتي الطوفان، ولن ينجو منه إلاّ النذل والوغد والخسيس).

ـ : «أكنت تتردد كثيراً إلى عيادات الأطباء؟».

ـ : «كنت أفضل التردد إلى المقابر لأنّ دخولها مجاني».

(وتوهمت أنّ تعوّد رؤية القبر هوّ خير استعداد ليوم آت لا مفر منه، ولكنّي كنت مخدوعاً، فالعيش فوق التراب ليس كالعيش تحته).

ـ : «أمشتاق إلى ابنك الشاب الذي ليس لك غيره؟».

ـ : «زارني أمس وبرفقته امرأة جميلة ترتدي أقصر ثوب رأيته في حياتي ومماتي، وسررت لأنّ الثوب كان أسود».

(عندما ضحكت المرأة تبدّل كلّ ورد ذابل بلغه ضحكها وصار نضراً يفوح عطراً، وخيّل إليّ للحظات أنّي قد عدت حيّاً).

ـ : «أمشتاق أيضاً إلى أصدقائك؟».

ـ : «أصدقائي أوفياء لا ينقطعون عن زيارتي، وفي كلّ زيارة يقرأون الفاتحة، ويهدونها إلى روحي».

(وكلّما أتوا لزيارتي، قعدوا على قبري، وتحدثوا عن أحوال الدنيا، واختلفوا، وحوّلوا المقبرة ما يشبه المقهى، ولا ينقصهم سوى جرسون يتجول بينهم ويلبي طلباتهم).

ـ : «لماذا لم تسارع إلى زيارة المرحومة زوجتك بعد موتك؟».

ـ : «حظّي قليل لأنّها مدفونة في مقبرة نائية، والوصول إليها يهرئ أقوى الأقدام، ولو رأتني لأنكرتني ولما عرفتني، فقد تعوّدت دائماً رؤيتي نظيفاً مرحاً، واليوم ليس لديّ إلاّ هذا الكفن الوسخ، ووجهي عبس وتولى».

(بكيت فرحاً يوم ماتت، وارتديت ثياباً داخلية فاقعة الألوان، وسأنتحر إن أرغمت على رؤيتها بعد موتي).

ـ : «أيّ معجون لتنظيف الأسنان كنت تستخدمه؟».

ـ : «كنت أستخدم أصابعي والملح فقط».

(آمل أن يهدوني صندوقاً يحتوي أفخر معاجين تنظيف الأسنان دعاية للشركات المصنّعة).

ـ : «ماذا كنت تفعل بمن يلطمك على خدّك الأيسر؟».

ـ : «أسأله ما إذا كانت يده قد تأذت من جلد وجهي الخشن، وأحاول الاعتذار بشتى الأساليب».

(ألطمه على خدّه الأيسر وخدّه الأيمن، وألطم أباه وجدّه وكلّ من يحاول الدفاع عنه).

ـ : «أكنت مؤمناً بالله؟».

ـ : «كنت مؤمناً بالله وملائكته وأنبيائه وأولي الأمر».

(هذا جواب حفظته ورددته ملايين المرات عندما كنت حيّاً).

ـ : «أكنت تصلي كلّ يوم خمس مرات؟».

ـ : «كنت أصلي سبع مرات».

(عندما كنت شابّاً في مقتبل العمر، كنت أحرص على الصلاة في المسجد، ولكنّي لم أعد أدخل أيّ مسجد، وتوقفت عن الصلاة منذ أن أمسك بي شيخ المسجد إمساكاً منافياً للآداب العامة، ولم أفلت منه إلاّ مصادفة).

ـ : «أكنت تصوم شهر رمضان؟».

ـ : «كنت أصوم شهر رمضان المبارك، وأتمنى أن يبقى ولا يرحل».

(قضيت حياتي كلّها شبه صائم، والمرات القليلة التي شبعت فيها أتذكّرها كأنّها أحداث تاريخية لا تنسى).

ـ : «أكنت تزني؟».

ـ : «زوجتي هي المرأة الوحيدة التي عرفتها طوال حياتي».

(وما إن أستسلم للنوم حتّى تمتلئ مناماتي بأشهى النساء).

ـ : «أكنت تزني؟».

ـ : «أنا أبغض النساء، وحين أدخل الجنة بإذن الله ستتذمر الحوريات من شراستي في الدفاع عن عفّتي».

(رغبت دائماً في الزنى، ولكنّ العين بصيرة واليد قصيرة).

ـ : «أكنت تزكي؟».

ـ : «كنت أزكي في أيّام اليسر فقط، وحياتي كلّها أيّام عسر».

(الزكاة لها أصحابها، وكيف أزكي ما دامت أحوالي تجعل قطّي يشفق عليّ ويموء كالمجنون صابراً على الجوع، ولا يأكل من طعامي؟).

ـ : «أكنت تكذب؟».

ـ : «لم أكذب أبداً، وكنت أكره الكذب والكذّابين».

(كنت أكذب في الليل والنهار لأستمر في العيش).

ـ : «ولكنّك كنت تكذب على مالك بيتك يوم يطالبك بالإيجار المتأخر المستحق، وتزعم أنّك لم تقبض بعد راتبك الشهري».

ـ : «لو قلت لمالك البيت إنّي قبضت راتبي وأنفقته كلّه في تسديد ديون أخرى لطردني من البيت شرّ طردة ولنامت عائلتي على الرصيف».

(هل اتفقوا مع مالك البيت على تحصيل الإيجارات المستحقة لقاء نسبة مئوية لهم؟).

ـ : «ما رأيك في أولي أمرك؟».

ـ : «كلّهم من عظماء الرجال، عادلون، علماء، أتقياء، زهّاد، رحماء».

ـ : «ما هذه الوقاحة؟ أما زلت تكذب حتّى وأنت في القبر؟ هيّا قل رأيك فيهم بصراحة وبلا خوف».

ـ : «كلامكم كلام رجال شرطة، فهل لديكم ما يثبت أنّكم لستم رجال شرطة متنكرين؟».

ـ : «لدينا كلّ الوثائق المطلوبة، فهل ترغب في الاطلاع عليها؟».

ـ : «وكيف أعلم أنّها غير مزوّرة؟ لن أخدع بسهولة، ولن أتفوه بكلمة حتّى لو أطبقت السماوات على الأرض».

ـ : «هيّا اذكر أسماء جميع الأحزاب التي انتميت إليها، واذكر اسم كلّ من تعرفه منتمياً إلى حزب».

فلم يجاوب الميّت، ولاذ بالسكوت المطبق، وأخفق الرجال ذوو الثياب البيض في إرغامه على التكلّم ثانية على الرغم من أنّهم لجأوا إلى استخدام وسائل ترغم الأبكم على التكلّم، وتضاءل حجم القبر حتّى لم يعد يتسع لجثة رضيع.

٤٤

المنتظر

دخل خليفة الترك بخطى متعثرة إلى المقهى الذي اعتاد التردد إليه يوميّاً، وسأل الجرسون: «هل سأل عنّي أحد؟».

فقال له الجرسون بعداء: «لم يسأل عنك أحد».

قال خليفة: «أأنت متأكّد؟».

فقال الجرسون بصوت نافد الصبر: «لم يسأل عنك أحد لا اليوم ولا البارحة.. لا هذا الأسبوع ولا الأسبوع الماضي.. لا هذا الشهر ولا الشهر الذي قبله. ألم تملّ من هذا السؤال كلّ يوم مرتين؟ أنا نفسي مللت وجننت».

وجلس خليفة مع أربعة من أصدقائه كانوا يتبارون في التذمر من حياة ليس فيها ما يسرّ، فقال لهم: «كأنّكم نسيتم أنّه سيأتي عمّا قريب وستتغير كلّ أحوالكم».

فلم يبال به أصدقاؤه، وقال أحدهم وهو يشير إليه بإصبعه: «ألا ترون أنّه سكران كالعادة لا يعرف كوعه من بوعه، ويخلط عبّاساً بدبّاس؟».

فلم يحاول خليفة التفوّه بكلمة، واكتفى بالابتسام.

وعاود أصدقاؤه التذمر من حياة فظّة ليس فيها ما يسرّ، وأنصت خليفة لتذمرهم إنصاتاً لا يخلو من اللوم والغيظ والرثاء.

ولمّا ملّ خليفة الترك من حديث أصدقائه، غادر المقهى على عجل من غير أن يودع أصدقاءه، وهرع إلى بيته، فقالت له زوجته ساخرة: «سأجاوب قبل أن تسألني أيّ سؤال. سأل عنك بإلحاح صاحب البيت وأقسم أنّه سيطردنا إذا لم ندفع الايجار المتأخر منذ ستة أشهر، وسأل عنك الجزّار، وقال إنّ لحمه مرّ لا يؤكل، وسأل عنك البقّال، وقال إنّه سيغلق دكانه ويشهر إفلاسه إذا كان كلّ زبائنه مثلك».

فقال خليفة: «ألم يسأل عنّي أحد غير هؤلاء؟».

قالت الزوجة: «أف! كلّ يوم تسألني هذا السؤال مئة مرة، فهل تتوقع أن يسأل عنك أبي ليطلقني منك وأستريح؟».

وتناهى إلى سمع خليفة الترك قرع شديد على باب بيته، فشحب وجهه، واضطربت أنفاسه، وركض إلى باب البيت، وفتحه بلهفة، فرأى ثلاثة رجال، عرف واحداً منهم، وقال له بمرح: «هيّا نكمل نقاشنا الذي بدأناه في الخمّارة؟».

فانتضى الرجال الثلاثة سكاكينهم الغضبى.

٤٥

الوالي الأبديّ

ألقى الوالي الجديد في يومه الأوّل خطبة طويلة، أعلن فيها عن عزمه على تنفيذ مجموعة من الاجراءات الكفيلة بإصلاح أحوال المدينة في مختلف الميادين، وأصدر بعد أيّام قانوناً يعطي النساء الحقّ في تعدد الأزواج، ويبيح لكلّ امرأة الزواج من عشرة رجال في آن واحد، فرحبت نساء المدينة بهذا القانون، وثار الرجال عليه، وقدموا إلى الوالي عرائض احتجاج قاسية اللهجة يطالبون فيها بإلغاء هذا القانون فوراً، فكان جواب الوالي أنّ هذا القانون لم يصدر إلاّ ليبقى وينفذ ويقضي على التمييز بين الرجل والمرأة، فاضطر رجال المدينة إلى تأليف وفد ضمّ أكثرهم مالاً وثقافة، وقابل الوالي مشتكياً مستعطفاً، وتبارى أعضاؤه في التحدث عن مساوىء القانون الجديد ومخالفته لأحكام الدين الحنيف، وتساءلوا: «إذا كان ديننا أعدل الأديان يسمح للرجال بالزواج من أربع نساء فقط، فكيف يسمح القانون الجديد للنساء بالزواج من عشرة رجال؟».

فوعدهم الوالي بالنظر في انتقاداتهم، وفوجىء رجال المدينة بعد

أيّام قليلة بصدور تعديل للقانون لا يبيح للنساء الزواج إلاّ من أربعة رجال، فرحّبوا به، واعتبروه نصراً لهم، ولم يدهشوا عندما بلغهم أنّ زوجة الوالي الصبية الجميلة صارت زوجة لأربعة رجال، وأنّ الوالي نفسه قد تنهد بارتياح قائلاً إنّ رحى الطاحون يعجز عن حملها رجل واحد شديد التفاخر بقوته بينما يحملها بيسر عدة رجال ضعاف متعاونين.

وقرر الوالي الجديد شنّ حرب جديدة شعواء على التخيّلات غير المؤدبة المتفشيّة بين الشبّان، فاستغرب أعوانه هذا القرار، فقال لهم: «من ينجح في أن يتخيّل امرأة يفعل بها ما يشاء لا يصعب عليه أن يتخيّل أيضاً والياً يفعل به ما يشاء».

واشتهر الوالي الجديد بحرصه على إسعاد أهل المدينة بكلّ الوسائل، واكتشف يوماً أنّ بؤسهم لا سبب له إلاّ المشي على الأقدام، فحظره، واستبدله بالمشي على أربع، فأحبّ أهل المدينة المشي الجديد، ووجدوه مريحاً أكثر، ولم يضبط رجال الشرطة مخالفاً واحداً، وازدهرت مهنة صنع الأحذية للأيدي والأقدام، وتغيّرت الأزياء الحديثة للثياب، وباتت تُعنى بتجميل الظهور بحجّة أنّها تُرى أكثر.

ولمّا مات الوالي بسبب تقدمه في السنّ حلّ محلّه ولاة آخرون، وأصدروا قوانين جديدة تلغي الكثير من القوانين التي صدرت في عهده، ولكنّ المشي على أربع استمر ونال مزيداً من التمجيد لكونه وسيلة حضاريّة راقية لمحو ما يوجد من فوارق بين المخلوقات التي تدبّ على سطح الأرض.

٤٦

الحقيبة

سمع عليّ الشجر يتوسل إلى الخريف أن يتأخر حتّى يظلّ أخضر، وسمع النهر يؤنب الأسماك التي لا تكفّ عن الحركة وتعكير مائه، وسمع الأرض تهدر غضبى على جنود يدّعون أنّها لهم بينما هي تجهلهم ولم يولد واحد منهم على أديمها، فلم يدهش، وصار بعد حين مطلوباً للاعتقال العاجل حيّاً أو ميتاً بتهمة اغتيال جنود وتفجير ثكنهم ومساكنهم، ورُوّج تهديد بعقاب شديد لكلّ من يتجرأ على مساعدته، ولكنّ عائلة الصيّاغ المشهورة بأنها لا تعنى إلاّ بالحفاظ على ثرواتها لم تأبه للتهديد، وخبأت عليّاً وحقيبته اليدوية الثقيلة في بيت من بيوتها طوال أشهر، وحرص رجالها كلّ ليلة على السهر مع عليّ والإصغاء المتحيّر إلى أقواله الغريبة عن مستقبل قريب آت تلعب فيه الذئاب والحملان معاً، فيتبادلون النظرات المستغربة إذْ لم يروا طوال حياتهم سوى ذئاب يقطر دم الحملان من أنيابها.

وفي إحدى الليالي، كان عليّ قليل الكلام، وتمطى وتثاءب مرات عديدة، وانسحب من السهرة متذرعاً بأنّه متعب ونعسان ويرغب

في النوم المبكر، وما إن غادر الغرفة حتّى شرع الرجال في التحدث عنه بإعجاب تحوّل رويداً رويداً عداء مرّاً، ولم يكن عليّ نائماً، وسمع كلّ ما قالوه عنه.

قالوا بتأفف إنّ ضيافته طالت ولا نهاية لها، ولو قبض عليه في بيتهم لاستجوب وأعدم فقط بينما هم ستدمر بيوتهم وتصادر ثرواتهم وتتشرد أسرهم، وقالوا بغيظ إنّهم لو أبلغوا عنه لما نجوا من الاعتقال بحجة أنّهم ساعدوه على الهرب أشهراً، وسيدفعون الثمن باهظاً، وقالوا إنّه حتّى إذا اختار ترك بيتهم، فسيعتقل ويعذب ويبوح بأسمائهم ويعاملون كشركاء له، وقالوا إنّ أفضل حلّ لورطتهم وورطته هوّ أن ينتحر أو يساعد على الانتحار، فييأس الباحثون عنه ويعتقدون أنّه نجح في الفرار إلى بلد آخر، وتساءلوا بفضول عن تلك الحقيبة اليدوية الثقيلة التي لا تفارقه ليل نهار ولا يُعلم ما في داخلها، ولم يهتدوا إلى جواب مقنع، ولاذوا بالصمت المرتبك عندما سمعوا سعاله غير المتوقع، وبوغتوا بدخوله عليهم مرتدياً ثيابه الكاملة حاملاً حقيبته اليدوية الثقيلة المصنوعة من صفيح قاتم، وقال لهم بصوت متهدج إنّه كان موشكاً على النوم عندما تذكّر فجأة أنّه سيلتقي الليلة أشخاصاً قادرين سيكفلون له النجاة والهرب إلى حيث يشاء، وصافحهم بحرارة مودعاً الواحد تلو الآخر، وقدم إليهم حقيبته اليدوية هدية منه تقديريّة لنبل لا نظير له، خبّأها رشوة للطامعين في اعتقاله، ولا يدري ما إذا كانت ستنجح أم ستخفق، ورجاهم ألاّ يطّلعوا على محتوياتها بحضوره حتّى لا يخجل من فقرها، ثم غادر البيت بخطوات مسرعة، وركض في الشوارع المظلمة بأقصى قوته، وسمع دويّ الإنفجار المرتقب، وسمع أيضاً الليل يأمر القمر بالتواري والأرض تلهث لهاث طفلة أعياها الركض الطويل.

٤٧

أربعة رجال وامرأة

كان أربعة رجال يمشون معاً في شارع.

ضحك الرجل الأول عندما رمقته امرأة جميلة بنظرة خائفة.

ضحك الرجل الثاني فرحاً بطيور تحلّق في سماء رحلت عنها سحائب الشتاء.

ضحك الرجل الثالث وقد تذكّر ما رأى في أثناء نومه.

ضحك الرجل الرابع لأنّ أصدقاءه ضحكوا.

كان أربعة رجال وامرأة يمشون معاً في بستان، وقد اختلفوا عندما أراد كلّ واحد منهم أن تكون المرأة له، وقتل الرجل الأوّل الرجل الثانيّ، وقتل الرجل الرابع الرجل الثالث، وقتل الرجل الرابع الرجل الأوّل، وقتلت المرأة الرجل الرابع، ووارت جثثهم في حفرة اتسعت لها، وغطتها بالتراب، وقعدت على العشب متعبة تنتظر رجالاً آخرين.

كان أربعة رجال وامرأة يمشون معاً في صحراء، فعثروا على بيضة ضخمة لم يروا مثلها طوال حياتهم، وتفحّصوها متحيّرين، وفزعوا لحظة بلغت مسامعهم جلبة مفاجئة في جوف البيضة كأنّ ما فيها قد حان خروجه منها، وتشققت قشرة البيضة وتصدعت، وخرج منها جنديّ نزق يشهر سلاحه متأهباً للقتل، فحاول الرجال الأربعة والمرأة الهرب والتواري، فطاردهم الجنديّ، وقتلهم الواحد إثر الواحد، وقتل غزالة صغيرة كانت قد نأت عن قطيعها، وقتل شجرة وأحالها شظايا، وفتش في ما حوله عمّا يصلح لأن يقتله، فلم يجد إلاّ الرمال والأشواك والشمس، فأولج فوهة بندقيته في فمه، وأطلق النار ليسقط قرب الرجال الأربعة والمرأة.

وزحفت الرمال نحو جثة الجندي وبندقيته وجثث الرجال والمرأة والغزالة، وغطتها، وامتزجت بدمائها، وغلفتها بطبقة كثيفة جففتها الشمس وجعلتها قشرة صلبة تتكسّر حين يؤمر ما في جوفها بالخروج منها بعد تسعة شهور.

٤٨

البكّاء

أقدم عبد الوهاب ذو الشعر الأسود المشعث على تمزيق رسالة سبق له أن تسلمها واطلع عليها، وألقى بها في إحدى سلال المهملات المتناثرة في الشارع العريض الأرصفة، وسار بخطى متعجلة محمر الوجه من دون أن يدري إلى أين يذهب، فالمقاهي لا تخلو ممن يعرفه، والشوارع مزدحمة بالناس، ودور السينما تعجّ بروادها، والحدائق العامة مختنقة بصراخ الخادمات والأطفال، ولم يجد مكاناً مقفراً مثل المقبرة التي لمحها مصادفة، فدخلها مسرعاً، وانتقى قبراً عريضاً وجلس عليه، ونظر إلى ما حوله، فلم ير إلاّ القبور والشجر العجوز، فبكى بصوت عال خجلاً من دموعه التي لم يحاول مسحها وتركها تسيل على وجهه وتبلله، وبكى كأنّه لم يبك طول حياته، وآن الأوان لاستنفاد كلّ ما تجمع لديه من دموع، وبوغت بيد تربت كتفه، فالتفت مرتبكاً وخجلاً، فإذا حفار القبور يرمقه بنظرات فضولية ويقول له وهو يشير إلى القبر الذي يجلس عليه: «دفنته بيديّ هاتين. رحمة الله عليه. سمعت أنّه كان رجلاً طيّباً».

ووجد عبد الوهاب نفسه يقول لحفار القبور: «صحيح كلامك. كان المرحوم من أطيب الناس».

ومسح عبد الوهاب دموعه بأصابعه، وأضاف قائلاً: «كان رجلاً طيّباً حنوناً كريماً لا يردّ محتاجاً، وإذا علم أنّ أسرة في ضيق بادر إلى نجدتها سرّاً».

قال حفار القبور: «ولكنّي سمعت أنّه كان فقيراً».

قال عبد الوهاب: «لم يفتقر إلاّ لكثرة ما أنفقه على الناس المعوزين».

قال حفار القبور بصوت آسف: «لو كنت أعرف هذه المعلومات عن المرحوم يوم دفنه لما ضيّقت قبره ولتعبت قليلاً».

وأحبّ عبد الوهاب الصورة التي تخيّلها للميّت المدفون في القبر الذي يجلس عليه، وأحسّ أنّها ناقصة، فقال لحفار القبور: «ماذا أحكي لك عنه؟ كان رجلاً من خيار الرجال، لا يعادي إلاّ الأقوياء المتفاخرين بقوتهم».

قال حفار القبور: «والموضة اليوم معاداة الضعفاء».

وجلس حفار القبور بجوار عبد الوهاب، وقال له: «يحقّ لك أن تبكي، فمن كان مثله يُبكى عليه ليل نهار، ففي هذه الأيّام، نترك الوغد لنقابل النذل، ونترك النذل لنقابل اللئيم، ونترك اللئيم لنقابل الخسيس والحقير والدنيء».

ففرك عبد الوهاب عينيه بأصابعه، فسأله حفار القبور: «ما قرابتك بالمرحوم؟».

فلم يجب عبد الوهاب، فقال له حفار القبور: «ابك ولا تستح، فلو كان المرحوم قريبي أو صديقي لبكيت عليه أكثر منك».

فحاول عبد الوهاب في هذه المرة أن يبكي حزناً على موت رجل لا يعرفه، كان يغيث المستغيثين.

٤٩

البقايا

أيقظتني قابلتي من نوم ممتع دام تسعة أشهر في بطن أمّي، فلم أصح متذمراً، وكظمت غيظي، ووضعت على فمي ابتسامة بريئة وديعة، أدهشت كلّ من كان يحيط بي، وانتزعت إعجابه، وتناقلتني الأيدي بحذر حتى وصلت إلى يدي أبي الذي رفعني إلى أعلى بحركة مزهوّة قائلاً: «هذا ابني. ماذا أسميه؟».

فاقترحت عليه اسماً طريفاً غير مؤدب، فلم يفهم ما قلته، وظنّ أنّي أبكي جائعاً، فوضعني فوق صدر أمّي طالباً إليها أن ترضعني بسخاء وكثرة حتّى أكبر بسرعة، فصحت بهم حانقاً أنّي أحبّ الفاكهة الطازجة ولا أطيق الحليب، فكان ردّ أمّي هو أنّها فتحت فمي بإصابع يديها، ودست بين شفتيّ حلمة ثديها الطافح بالحليب، فصرخت غاضباً، ولكنّي اضطررت إلى استساغة ما أمقت رضيعاً وطفلاً ورجلاً.

أيقظتني أمّي من نومي صائحة بغضب أنّي تأخرت عن المدرسة، فتثاءبت، وتمطيت، وأخبرت أمّي أنّ المدرسة باقية في مكانها ولن

تهرب، ولكنّي عندما ذهبت إلى المدرسة، لم أجدها إذْ تحوّلت أنقاضاً محترقة، ولم تصدّق أمّي ما رأيت، واتهمتني بالكذب، وظلت ترغمني كلّ صباح على الاستيقاظ المبكر، ولم تكن أمّي بالمخطئة، فالمدرسة التي احترقت شيّدت في أيام قليلة، وكلّما رأيتها شامخة بأحجارها البيض خيّل إليّ أنّي كنت واهماً عندما رأيتها محترقة.

أيقظني أبي من نومي منددأً بكسلي، وهطلت عليّ نصائحه حول مستقبلي، ولو كنت قويّ الذاكرة وكتبتها على ورق أبيض لقذفت بها إلى أقرب صندوق قمامة، ولكنّي وقفت أمامه كما يقف الجندي حين يباغت برؤية جنرال، وتدفقت الكلمات من فمي سخيّة حارة تعاهده على إطاعة كلّ نصائحه.

أيقظتني زوجتي من نومي، وقدمت إليّ فنجان القهوة وهي تقول لي: «مساء الخير».

فاستغربت قولها، وقلت لها: «العقلاء يقولون في الصباح: صباح الخير».

قالت زوجتي وهي تضحك: «عن أيّ صباح تتحدث؟ الشمس توشك أن تغرب وأنت لا تزال نائماً».

فقلت لها: «ليس على المريض حرج».

قالت زوجتي: «أأنت مريض أم متمارض؟».

فلم أجاوب عن تساؤلها، وتخيّلت المبنى الحكومي الذي أتردد إليه يوميّاً بصفتي واحداً من موظفيه، وأبقى ملتصقاً بأحد كراسيه ثماني ساعات بغير نقصان أو زيادة أشعر خلالها أنّي قطعة من الخشب ينخرها السوس، فلم أكمل احتساء فنجان القهوة، وعاودت النوم غير مكترث لاحتجاج زوجتي الذي بات مفعماً

بالغيظ منذ أن أبلغتها أنّي لم أرها يوماً في أيّ منام من مناماتي.

أيقظني من نومي ابني الصغير بينما كان يحاول إدخال ملعقة صغيرة من البلاستيك في فمي، فعانقته وأمرته بأن ينام، فأغمض عينيه، وتصنّع أنّه نائم، وما لبث بعد قليل أن نام نوماً حقيقياً مطمئناً لم يتح لي ليلة أن أنام مثله، وعدت إلى النوم، ورأيت في أثناء نومي أنّ ابني الصغير يمسك أقلاماً ملوّنة ويحاول أن يرسم على لحمي البارد قططاً وطيوراً وأشجاراً وأزهاراً، وزوجتي تضحك بمرح، وتأمره باحترام الموتى، وتقف أمام مرآة طويلة متفحّصة ما تراه بنظرات ماكرة.

أيقظتني من نومي أصوات العصافير، فوثبت من سريري، ونظرت من النافذة المطلّة على الحديقة، فإذا هي ملأى بالعصافير التي قد تكون مخلوقات أخرى مفترسة تتصف ببراعتها في التنكر، وكلّ ما اكتظت به حياتي من أشباح لا سبب له إلاّ غباوتي المخدوعة بوحوش ضارية متنكرة في هيئات رجال ونساء وأبنية ومدن.

أيقظني من نومي صوت المؤذن الداعي إلى صلاة العشاء، فتركت سريري، وتوضأت، وصليت، وطلبت من الله كثيراً من المطالب لم يتحقق واحد منها، فلم آسف أو أعتب، فمليارات من البشر تطالب بأكثر مما أطالب، ولا يمكن أن تلبى مطالبها في وقت واحد وقبل أن تدرس بنزاهة وإنصاف.

أيقظني من نومي حلم رأيت فيه أنّي جثة ملقاة على أرض شارع مزدحم بالناس والسيارات، والجثة تتعفن وتتفسخ، ولا أحد يتنبه لها.

أيقظني من نومي رجال الشرطة، وقبضوا عليّ بتهمة أنّي أحرقت المبنى الحكومي الذي أعمل فيه يوميّاً، فاعترفت إبان الاستجواب

أنّي أحرقته، وأحرقت أيضاً مدرسة ومسجداً، ولكنّ التحقيق البطيء الصارم أدّى إلى اعتقال الجناة الحقيقيين، وكشف أنّه لا وجود لأيّ مسجد أو مدرسة احترقا منذ أن ولدت، وقال لي أحد المحققين بصوت ساخر: «يبدو أنّك لا تفرق بين ما تتمناه وبين ما تفعله».

أيقظتني إحدى الممرضات من نومي، وأبلغتني أنّ الأطباء قرروا الإفراج عني، فنظرت إلى ما حولي بعينين مملوءتين بالدموع، فربتت الممرضة بيدها على شعر رأسي الأبيض، وذكّرتني أنّ الرجال لا يبكون، فارتديت ثيابي على مهل، وغادرت المستشفى بخطى متعثرة حزينة، فوجدت على بابه زوجتي تنتظرني وقد صارت عجوزاً، ووجدت ابني الصغير ينتظرني أيضاً وقد صار رجلاً ذا شاربين كثين، وجلب معه زوجته الصبية وأبناءه الثلاثة، فطلبت إليهم نقلي إلى البيت بأقصى سرعة، وهناك نمت في سريري الذي حرمت النوم عليه طوال أعوام معانقاً زوجتي الرماد الدافئ، ورأيت في أثناء نومي قطعة كبيرة من اللحم المشوي قابعة أمامي في صحن أبيض، ولكنّ ما تبقى في فمي من أسنان وأضراس لا يتيح لي مضغها وابتلاعها، فأمسكت بقطعة اللحم، وطوّحت بها إلى قطّة وثبت عليها وهي تموء بغضب كأنّها تواجه عدواً.

ورأيت في أثناء نومي امرأة مستلقية على سرير، فحاولت قواي الواهنة أن تتخيّلها قبيحة منفرة، ولكنّي ازددت اقتناعاً بأنّها أجمل الجميلات، ولم أجرؤ على الاقتراب من سريرها.

ورأيت في أثناء نومي أنّي أنظر من النافذة إلى عشب الحديقة الأخضر، وتمنيت أن أستلقي عليه، ولكنّي كنت واثقاً بأنّي لو حاولت نيل ما أتمناه لما استطعت النهوض عن الأرض إلاّ إذا

استجديت العون من أيدي رجال أشداء، فهرعت إلى أمي معاتباً مستعطفاً مستنجداً، فأشفقت عليّ، وعدت بعد تسعة أشهر طفلاً رضيعاً، سارعت إلى الخروج من بطن أمي عابس الوجه مفعماً بالقوة والحيوية والغضب، وحاولت خنق قابلتي التي بادرت إلى الهروب وهي تصرخ مذعورة، وصفعت أبي بأقصى ما أملك من قوة وأنا أصيح به بنزق: «هذه الصفعة لك حتّى تتعلّم كيف تكلّم أمّي باحترام وصوت منخفض».

فقال أبي لي بصوت متهدج خافت: «سامحني. جلّ من لا يخطئ».

قلت لأبي: «ليتني أكون محظوظاً مثلك وأصبح أباً لأبناء يتعبون في تربيتي مثلما سأتعب في تربيتك».

وحدقت إلى أمّي متسائلاً بلهجة آمرة: «ماذا ستطبخين اليوم؟».

فقالت أمّي: «ماذا تشتهي أن تأكل؟».

قلت لأمّي: «سآكل أيّ شيء ما عدا الحليب الذي لا أطيقه».

قالت أمّي: «ستكبر بإذن الله وتأكل كلّ ما ترغب فيه».

فقلت لأمّي بحنق: «لا أريد أن أكبر. هيّا اذهبي إلى بيوت الجيران، وابحثي لي عن بنت تسليني. كأنّكِ نسيت أنّ تسعة أشهر مرّت بي وأنا ساكت لا أفعل شيئاً».

قالت أمّي: «وكيف تريدها؟».

قلت لأمّي: «أريدها جميلة لا تشبهك».

وخاطبت أبي بصوت مؤنّب قائلاً له: «ما بك قاعد تحملق إليّ كالأبله؟ انهض وابحث في التلفزيون عن مباراة في الملاكمة تنتهي بموت أحد الملاكمين بالضربة القاضية».

قال أبي: «البرامج الرياضية لا تقدم عادة إلاّ في الليل».
فضحكت ضحكة قصيرة، وقلت بازدراء: «ما هذا التخلف؟ هل تعتبر البرامج الرياضية أفلاماً جنسية؟».
وتثاءبت وأنا أقول: «سأنام قليلاً لعلّي أتخلّص من هذا الملل الذي أحسّ به».
ونمت توّاً، و رأيت في أثناء نومي الملائكة تطير فوق المدن والقرى، وتقصفها بالقنابل المحرقة، فابتسمت بوداعة، وتزايد استسلامي للنوم العميق.

٥٠

بعض ما جرى لنا

﴿سهرة في المخفر﴾

دعانا رئيس مخفر الشرطة إلى سهرة في مخفره، فلبّينا الدعوة شاكرين ممتنين، ودخلنا إلى المخفر دخول الضيوف المكرمين المرحّب بهم لا دخول المطلوبين للتحقيق، وسرنا بخطى مضطربة في ممراته ذات الأبواب الكثيرة المغلقة، وتبارينا في مصافحة رئيس المخفر، ثم جلسنا صامتين حيارى، فقال لنا متسائلاً بصوت ممازح مؤنّب: «ما بكم ساكتون؟ أنسيتم أنّ لا شيء في الحياة أبغضه مثل الأفواه الساكتة؟ أنسيتم أنّ الإنسان لم يخلق إلاّ ليتكلّم، فتكلّموا».

فتكلّمنا بإسهاب عن زوجاتنا المبذرات وألسنتهن الطويلة، وتكلّمنا عن أولادنا المشاكسين المحبين للتشاجر، فتثاءب رئيس المخفر بادي الملل، وقال لنا: «أتعرفون أننا قبضنا اليوم على لصّ دوّخ البلد، ولا يسرق إلاّ ما خفّ وزنه وغلا ثمنه؟».

وقال لنا رئيس المخفر: «وقبل أيام، قبضنا على رجل اشتهر بقوته، فرجاني وهو يبكي كالنساء أن أسمح له بتقبيل قدمي، فأشفقت

عليه، وسمحت له بتقبيل حذائي».

وقال لنا رئيس المخفر: «وقبضنا على امرأة تغتصب الرجال، واعترفت إبان التحقيق أنّها اغتصبت سبعة رجال».

وقال لنا رئيس المخفر: «وقبضنا على سكران يسير في الطرقات صائحاً أنّه الله».

وقال لنا رئيس المخفر: «وقبضنا على شحاذ مبتور الساقين والذراعين، ولا يزال التحقيق معه جارياً، ولم يعترف بعد باسم الدولة التي يتجسس لحسابها، ولكنّه سيعترف».

وقال لنا رئيس المخفر: «وقبضنا على صبيّ لا يتجاوز عمره عشر سنين، ففوجئنا بأنّه أخطر مهرّب للمخدرات».

وقال لنا رئيس المخفر: «وقبضنا على رجل متزوج من عشر زوجات، ويعامل كلّ زوجة بوصفها دكّاناً مطلوباً منها كلّ يوم أن تربح».

وقال لنا رئيس المخفر: «وقبضنا على ثلاثة رجال كانوا يحاولون هدم مسجد».

وقال لنا رئيس المخفر: «وقبضنا على فتاة صغيرة جميلة مختصة بإغراء الأتقياء من الشيوخ».

وقال لنا رئيس المخفر: «وقبضنا على شابّ يصنع القنابل، ويوزعها مجّاناً على الراغبين فيها».

وقال لنا رئيس المخفر: «وقبضنا على امرأة عجوز هوايتها ضرب جيرانها».

وقال لنا رئيس المخفر: «وقبضنا على كلب يتعمد النباح في آخر الليل كي يجعل نوم الناس قصيراً».

فأصغينا بخشوع إلى أقوال رئيس المخفر، وتوسلت دماؤنا المرتجفة

إلى الليل أن يسارع إلى الرحيل، ولكنّه لم يأبه لها، فبقينا في مخفر الشرطة، ولم تنته السهرة.

﴿ الملاذ ﴾

كان رستم بهاء الدين رجلاً غريب الأطوار، اعتاد ألاّ يكذب، ويتباهى بأنّه لم يكذب طوال حياته.

وفي إحدى الليالي، تزايدت همومنا حتى أوشكت أن تمنعنا من التنفس، فقصدنا رستم بهاء الدين في بيته، وقلنا له: «كلّ ما حولنا يحاول أن يكذب علينا ويخدعنا كأننا بلا عقول، فهل لك أن تحدّثنا حديثاً يذكّرنا بأنّ الصدق لا يزال موجوداً وجديراً بالثقة؟».

فابتسم رستم بهاء الدين، وقال لنا: «اكتشفت فوائد الصدق أوّل مرة عندما كان عمري عشرين سنة، وكنت أيّامئذ شاباً طائشاً تسيطر عليه نزواته وتتحكم به، وقد اعتقلت بتهمة قتل رجل واغتصاب زوجته، فأنكرت التهمة بشدّة، وقلت الصدق وحده، وهوّ أنّي قتلت المرأة التي كانت رائحتها أبشع من رائحة جيفة واغتصبت الرجل الذي كان شديد التباهي بشاربيه، فسأل القاضي الماكر الجزء المستخدم في الاغتصاب عمّا حدث، فكان صادقاً مثلي، ولم تختلف أقواله عن أقوالي، وأقسم أنّه لم يمسّ المرأة واكتفى بالهجوم على الرجل فقط، فاقتنع القاضي ببراءتي مما نسب إليّ من تهم، وأصدر حكمه ببراءتي، وخرجت من السجن أنفض غبار الموت عن كتفيّ».

وقال لنا رستم بهاء الدين: «وفي الثانية والعشرين من عمري، تزوجت امرأة جميلة بدينة تهوى الرشاقة والرياضة، ولا يحلو لها ممارسة تمارينها إلاّ وهي مستلقية على ظهرها، فلم تنل ما تصبو إليه

من رشاقة، وسألتني بحيرة عن رأيي، فقلت لها الصدق، وهو أنّ تمارينها الرياضية لن تجدي إلاّ إذا كانت تؤديها تحت رجل يجثم فوقها بكلّ ثقله وكلّ قواه، فأعجبت برأيي، وبادرت إلى العمل به، فإذا التمارين المقترحة تجعلها بعد أشهر مرتاحة الأعصاب على الدوام ورشيقة كالغزلان، وإذا جيوبنا الخاوية تمتلئ بالمال الوفير، وقد أقدم رجال كثيرون على السطو على أسلوبي الخاص في إنقاص الوزن والقضاء على السمنة، ومن دون استئذاني، وحضّوا زوجاتهم على تطبيقه، فلم يندموا أو تندم زوجاتهم. أمّا زوجتي، فقد طلقتها بعد أعوام قليلة بعد أن تبيّن لي أن حبّها للرشاقة يفوق حبّها للمال».

وقال لنا رستم بهاء الدين: «وفي يوم من الأيام، استدعاني رئيس مخفر الشرطة، ورحّب بي بحرارة، وقدم إليّ فنجان قهوة بلا سكر كما طلبته، وامتدح ما أتصف به من صدق ذائع الصيت، وامتحنه، وأعجب بنتائج الإمتحان، وقدّرها معنويّاً وماديّاً بعد أن عرف كلّ شيء عن بعض أهل الحارة. حتّى مقاييس أحذيتهم عرفها، فلا يجوز للمرء الكاره للكذب أن يكتم ما وهبه الله من معلومات قد تكون مفيدة أحياناً».

وسكت رستم بهاء الدين، وتثاءب تثاؤب الراغب في النوم، فنهضنا واقفين، وودعناه، وخرجنا من بيته لنفاجأ باختفاء همومنا، واستعدنا قدرتنا على الضحك.

﴿سارق المئذنة﴾

كان عبّاس المخللاتي رجلاً بديناً، عريض الكتفين ذا قامة أقصر من قامة ولد في العاشرة من عمره، دائم التجوال في الأسواق بعينين

مذعورتين، ولم ير رأسه يوماً من غير طربوش، فتحلقنا حوله، وسألناه ونحن نحاول أن نكون جادين عابسي الوجوه: «أين المئذنة؟».

فبحث عبّاس في جيوبه، وقال لنا: «لا أدري. المئذنة ليست معي. فتّشوني».

فقلنا له بأصوات صارمة: «لا تنكر. رأيناك وأنت تسرقها».

قال عبّاس: «أمّكم هي التي سرقتها».

فقلنا له: «أنكذّب ما رأته أعيننا ونصدقك؟».

قال عبّاس: «أنا لست بسارق».

فقلنا له: «إذا لم تكن أنت الذي سرق المئذنة، فمن سرقها؟».

قال عبّاس: «إسألوا رجال الشرطة ولا تسألوني».

فأمسكنا عبّاس المخللاتي ونحن نضحك، واقتدناه إلى المسجد، فإذا مئذنته غير موجودة، فبهت عبّاس، وقعد على الأرض، وراح يبكي مردداً أنّه مظلوم ولم يسرق المئذنة ولا يعرف من سرقها، فانقضضنا عليه، واختطفنا طربوشه من على رأسه، وأقسمنا أننا لن نعيده إليه إلاّ إذا أعاد المئذنة المسروقة، فظلّ عبّاس المخللاتي طوال سنوات بغير طربوش، وظلّ مسجدنا بلا مئذنة.

﴿كلّنا ينتظر الرياح﴾

اختفى نذير الحردان اختفاء لا مسوّغ له، فهو ليس مديوناً أو متزوّجاً ولا أبناء له، فقلق أهله وطغت عليهم وعلينا الوساوس، وبحث عنه رجال الشرطة بغير جدوى، ولكنّه عاد بعد أشهر زاعماً أنّه فقد ذاكرته وأضاع بيته وحارته، وما زعمه كان كذباً، وحكى

لنا فيما بعد السبب الحقيقي لاختفائه، ففي ليلة من الليالي بينما كان راجعاً إلى بيته بخطى مسرعة هبّت رياح قوية حملته وطوّحت به إلى مدينة لا يعرفها، فسألناه: «وكيف عدت؟ أبالقطار أم بالطائرة أم سيراً على الأقدام؟».

قال نذير: «كنت أتنزه مع زوجتي في حديقة عامة، فهبّت رياح عاصفة وأعادتني إلى حارتي».

قلنا باستغراب: «وهل تزوجت هناك؟».

قال نذير: «سبع زوجات».

قلنا مدهوشين ومستنكرين: «أنت مسلم، ودينك لا يسمح لك بغير أربع».

قال نذير: «أجبرت على الزواج إجباراً، ولو نجحت في الفحص الطبي لأجبرت على الزواج من مئات أو آلاف، فليس في تلك المدينة سوى النساء، ولا وجود فيها لرجل غيري».

فحملقنا إليه حاسدين، وأكثرنا من الوقوف في الطرقات كلّما هبّت الرياح.

﴿الزيارة﴾

زار حارتنا رئيس الولايات المتحدة الأميركية، وأقام أسبوعاً في أحد بيوتها، وتباحث مع أهمّ رجالها، وانتهت زيارته التي وصفت بأنّها ناجحة بصدور بيان مشترك ينوه بالعلاقات الطيبة السائدة بين الطرفين.

وعاد الرئيس الأميركي إلى واشنطن ليمارس مسؤولياته الجسيمة، وفي أوّل ليلة قضاها في البيت الأبيض، أطلقت زوجته صيحة فزع مدوية كشفت ما كان غير معلوم، فهذا الرجل شديد الشبه

بزوجها، ولكنّه ليس زوجها ولا سيما وأنّ الفوارق عظيمة بين جذع الشجرة وبين غصن صغير من أغصانها.

وعقد الكونغرس الأميركي في اليوم التالي جلسة طارئة قرر فيها شنّ حرب نووية على حارتنا إذا لم تبادر إلى إعادة الرئيس المختطف في مدة أقصاها أربع وعشرون ساعة، وأدلى رئيس الوزراء الإسرائيلي بتصريح لمراسلي وكالات الأنباء العالمية قال فيه إنّ ما حدث هو برهان جديد على أنّ حارتنا وكر للإرهابيين، ترعى الإرهاب وتشجعه وتدعمه، وألغى العديد من رؤساء الدول زياراتهم لحارتنا مع أنّهم سبق لهم أن أعلنوا عنها وحددوا أوقاتها.

وذعرت حارتنا، وسارعت إلى إعادة الرئيس المختطف والاعتذار علانية، واعترف عدد من رجالها بمسؤوليتهم وحدهم عمّا حدث، وأقرّوا بجهلهم وسذاجتهم وإخفاقهم في التخطيط السليم.

واحتفل الشعب الأميركي بعودة رئيسه سالماً معافى، ونشرت الصحافة الأميركية وثائق طبيّة تثبت أنّ الرئيس لم يتعرض وهو مخدر لما يخجل ويهين الكرامة، ولكنّ زوجة الرئيس المتسرعة حكم عليها بأن تندم كلّ ليلة أبشع ندم، وتتذكر بحسرة ما خسرته، فالبحر ليس كالساقية، وهجمة الجوعان على موائد الطعام لا تشبه هجمة الشبعان.

وما إن انتهت حارتنا من هذه الأزمة العابرة حتّى تنبهت لمظالم الرئيس السوفياتي المسمى بجوزيف ستالين، واستنكرتها، واختارت فؤاد الطرمحي المعروف بأناقته وبراعته في الحديث وشبهه للنساء وإتقانه عدة لغات أجنبية، وأرسلته إلى موسكو في زيارة سريّة تستهدف إقناع ستالين بالتخلي عن الحكم بالحسنى، واستقبله

ستالين بترحيب وودّ يليقان برجل من حارتنا، ولكنّ فؤاد الطرمحي اضطرب وارتبك، ولم يعرف كيف يبدأ كلامه، ووجد نفسه يقول لستالين إنّ الشعوب لن تتطور إلا إذا أدمنت الفودكا الروسية، فابتسم ستالين، وقال إنّ القليل من الخمرة لا يؤذي وقد يسعد المهموم.

وكانت ابتسامة ستالين باباً ولجه فؤاد الطرمحي على عجل لتنفيذ ما كلف به، ووفق توفيقاً رائعاً حتّى أنّ ستالين أعلن على الملأ استقالته من كلّ مناصبه، وحلق شاربيه، وندد بالشيوعية بوصفها من المبادىء الهدّامة المستوردة، ووزع مناصبه على رجال يثق بأنّهم قادرون على تحويل الفيل ذبابة، وهاجر إلى كندا ثم انتقل منها إلى الولايات المتحدة الأميركية حيث عمل في معمل لصنع السيارات.

وبعد أشهر، ضُبط ستالين في إحدى الليالي متسللاً إلى غرفة نوم الرئيس الأميركي ويحاول أن يندس في سريره، واعترف إبان محاكمته بغير حياء بما كان عازماً على فعله، فحكم عليه بالسجن عشرين سنة، وقوبل الحكم بارتياح الجميع ما عدا الرئيس الأميركي المتصف بالفضول وحبّ الاطلاع على كلّ ما هوّ غير مألوف. أمّا مدينتنا، فقد سخرت طوال ليال من فؤاد الطرمحي، ووصفته بأنّه المخدوع الساذج الذي لم يكتشف ما خططه الخادع الخبيث.

﴿الراكض﴾

أتى يوم السباق المنتظر، وتجمّع الراغبون في المشاركة في ذلك السباق شبّاناً أقوياء يرتدون الشورتات الملوّنة القصيرة، فنظر شيخنا جبر الأحمدي إلى السماء مستنجداً، وقال لنا: «هذا آخر الزمان يوم تفسد الأذواق، ويقصّرالرجل ثيابه بدلاً من أن تقصّر المرأة ثيابها».

ودوّى طلق ناري معلناً ابتداء السباق، فركض من ركض، وتعثر من تعثر، وأخفق من أخفق، وفاز من فاز، وانتهى السباق، ولكنّ صديقنا عمر الباقي المشارك في السباق لم يتوقف عن الركض كأنّه كان مشاركاً في سباق آخر مجهول الشروط، فلوّحنا له بأيدينا، وصحنا به: «انتهى السباق، فلماذا تركض؟».

فقال عمر لنا: «ماذا تفعلون حين ترون وحشاً يقترب منكم؟».

وعاد عمر الباقي إلى ركضه السريع.

وبعد أيام، قلنا لعمر إنّ أمّه ماتت، فقال لنا: «رحمة الله عليها».

واستمر عمر الباقي في ركضه السريع.

وبعد أسابيع، قلنا لعمر إنّ ابنه الوحيد الصغير مصاب بنزيف دموي، ونقل إلى المستشفى، فقال لنا: «الله الشافي».

وظلّ عمر الباقي يركض ركضه السريع.

وبعد أشهر، قلنا لعمر إنّ زوجته سيئة السلوك، وتُدخل أفواجاً من الرجال إلى بيتها في الليل، فقال لنا: «سأطلّقها، وهي ليست أختي».

فقلنا له إنّ بيته صادره البنك لتحصيل ما له من مال مستحق، فقال لنا: «الميت لا يحتاج إلاّ إلى كفن».

وتابع عمر الباقي ركضه السريع مبتعداً عنّا متجهاً إلى الجبال البعيدة، ولم نره مرة أخرى، ولعلّه لا يزال يركض ركضه السريع، فالأحوال ليست على ما يرام، والوحوش تكاثرت

﴿الجريمة النكراء﴾

خنق راشد المرجان زوجته آمنة، ففزع، وهرع إلى المسجد، وروى لشيخه ما فعله، وسأله النصح والمساعدة، فقال له الشيخ: «كلّ النصائح لا قيمة لها بعد القتل، وكيف أساعدك وأنت قد قتلت النفس التي حرّم الله قتلها؟!».

قال راشد: «قتلتها في لحظة طيش وجنون».

قال الشيخ: «ولماذا قتلتها؟ هل ضبطتها تخونك مع رجل آخر؟».

قال راشد: «اختلفنا وتشاجرنا، فهيّ تحبّ أغاني راغب علامة، وأنا لا أطيقها وتسبب لي الصداع».

قال الشيخ: «أليس حبّها للأغاني أفضل من أن تحبّ المغني نفسه؟».

فاشتكى راشد من زوجته وطباعها السيئة وكسلها، وادّعى أنّها لا تقدم إليه الطعام إلاّ بارداً، فضحك الشيخ بسخرية، وقال له: «لعلك نسيت أنّ كثيرين من الأزواج لا يقدم إليهم الطعام لا بارداً ولا ساخناً».

فقال راشد إنّ زوجته كانت لا تملّ من الوقوف عارية أمام المرآة في غرفة النوم، فسأله الشيخ: «وزوجتك؟ دميمة أم جميلة؟».

قال راشد: «جميلة كالقمر».

فتجهم وجه الشيخ، وقال لراشد: «تبت يداك. ألم يكن وقوفها أمام المرآة أحسن من وقوفها على سطح البيت؟».

فقال راشد إنّ زوجته كانت كثيرة الكلام، فقال له الشيخ: «الذنب ذنبك وحدك، فاللسان لا يتحرك إلاّ في الفم الفارغ».

فقال راشد إنّ زوجته كانت تطالبه ليل نهار بأداء ما عليه من

واجبات زوجية، فقال له الشيخ مدهوشاً: «وهل كنت تريد منها أن تطالب الجيران بأداء واجباتك نيابة عنك؟».

فقال راشد إنّ زوجته كانت دائمة الحرد، تمضي ليلة في بيته وليلتين في بيت أهلها، فصاح به الشيخ بصوت حانق: «يا لك من رجل كافر بالنعمة! حتّى المجنون لا يرفض أن يعمل يوماً ويستريح يومين».

فلاذ راشد المرجان بالصمت مفكراً في أقوال الشيخ، وتنهّد فجأة متحسراً نادماً، وركض إلى مخفر الشرطة، واعترف بجريمته النكراء مناشداً أن تبتر يداه قبل إعدامه.

﴿الوعيد﴾

كنّا شبّاناً عندما تشاجر ابراهيم القاق واسماعيل المولّد، وها قد صرنا كهولاً تحدق بنا القبور، ولم يثأر ابراهيم من اسماعيل الثأر الذي هدد به، وما زلنا ننتظر، وقلنا لابراهيم بلوم إننا ما زلنا ننتظر وطال انتظارنا، فابتسم ابتسامة غامضة عجزنا عن تأويلها، ولم يفه بكلمة واحدة.

وفي أحد الأيام، كان اسماعيل جالساً في المقهى منهمكاً في التحدث إلى عدد من أصدقائه، فإذا هو يصمت فجأة ولا يكمل كلامه، ويزرقّ وجهه، ويتهاوى على الأرض ميتاً، ففحصه الأطباء، وقرروا أنّه مات بالسكتة القلبية، ولكنّ ابراهيم أنبأ زوجته الثرثارة وهما في السرير يستعدان للنوم أنّه المسؤول عمّا جرى إذْ اتفق مع الموت على قتل اسماعيل، فعمّ الخبر، وعلمنا به، فشهقنا معجبين برجل قضى على خصمه من دون أن يلوّث يديه بأيّ دم، وحاولنا الالتقاء بالموت، فأخفقنا، وأبى ابراهيم المزهوّ بانتصاره أن يساعدنا، وظلّ لحمنا يسرق منّا من غير أن نعاقب السارق.

﴿اللون المفضّل﴾

حدّثنا الشيخ جبر الأحمدي عن فوائد ليلة القدر، وحكى لنا بإسهاب ما جرى قبل أن نولد لرجل من رجال حارتنا يدعى طلحة النفوري.

بكى طلحة النفوري في ليلة القدر مثلما تبكي النساء المغتصبات حين يتذكرن تأوهاتهن المنتشية وهنّ يغتصبن، فما يملكه ويسميه اليد الثالثة قميء شبيه بقزم يتصدى لمنازلة العمالقة، وكلّما التصق بامرأة انسحبت من سريره على عجل بادية الامتعاض، خائبة الآمال، وامتنعت عن الالتقاء به ثانية حتّى أنّ إحدى النساء سألته وهيّ تشير إلى أعزّ ما يملك بسبابة طويلة مزدرية: «أهذا خنصر؟ لا تقل إنّي ضعيفة النظر».

وتضرّع طلحة النفوري إلى الله أن يهبه يداً ثالثة طويلة غليظة، تتصلب كلما أمرت ولا تجرؤ على العصيان، وما إن توقف طلحة النفوري عن البكاء على حاله والتضرع إلى خالقه حتى أحسّ بأنّ دماءه تتدفق سريعة في عروقه، وتصبب جسمه عرقاً غزيراً، فهرع إلى المرآة ليباغت بأنّ يده الثالثة الضئيلة قد تبدّلت وصارت مديدة القامة، ضخمة، قويّة ذات مهابة، تضرب الحائط فتهدمه، فشهق طلحة النفوري فرحاً، وشكر الله وحمده حمداً كثيراً، وتنبه إلى أنّ اسم اليد الثالثة لم يعد صالحاً لأنّ ما يملكه صار في وضعه الجديد أقرب إلى قدميه من يديه، فأسماه القدم الثالثة.

وبعد أيّام، اطلع طلحة النفوري مصادفة على إعلان منشور في إحدى المجلات عن مسابقة عالمية لأضخم ما يتميّز به الرجال عن النساء، تجريها منظمة اليونسكو الدولية، فسارع إلى الاشتراك في

تلك المسابقة، وكان الفائز الأول الذي دحر كلّ المتسابقين الآتين من مختلف بلدان الدنيا.

وتسابقت محطات الإذاعة والتلفزيون والجرائد والمجلات على التنويه به وإجراء المقابلات معه، فكان حريصاً على أن يؤكّد في كلّ مقابلة أنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب.

وحققت مجلة «نيوز ويك» الأميركية سبقاً صحفياً عالمياً عندما نشرت على غلافها صورة ملوّنة لما استطال وكبر لدى طلحة النفوري، فنفد العدد من أسواق العالم في يوم واحد وبيع في السوق السوداء بأسعار باهظة.

وانهمرت على طلحة النفوري الجوائز العالمية التقديرية، ومنح جائزة نوبل للسلام، وكان رأي أعضاء لجنة التحكيم هو أنّ الحروب لا تشتعل نارها إلاّ بسبب التوتر العصبي، وما يملكه طلحة النفوري يبدد التوتر وينشر الطمأنينة والسلام.

وهرعت النساء والشبان من مختلف بلدان العالم إلى طلحة النفوري، فكان يقول للمتزاحمين على بابه: «لا داعي إلى التنافس والتشاجر، فلديّ ما يزيد عن حاجتكم».

ونشطت السياحة في حارتنا، وامتلأت خزائنها بشتى العملات الأجنبية، ولم تكن عاقّة ناكرة للجميل، واكتظت بيوتها وطرقاتها وأسواقها بتماثيل لذاك الذي أثبت صاحبه أنّ أمّته هي حقّاً خير أمّة أخرجت للناس.

ولمّا كان الإنسان خلق حسوداً، فقد تسلل عدد من رجال الحارات الأخرى إلى بيت طلحة النفوري، وأوثقوه بالحبال، وبتروا ما كان يتباهى به، وما إن ذاع نبأ ما جرى حتّى عمّ الحزن في كلّ مكان،

وابتكرت النساء في ذلك اليوم اللون الأسود ليكون اللون المفضّل لثيابهن الداخلية.

﴿صمت القاتل﴾

قيل لنا إنّ عمران القاضي قتل زوجته، واعتقل وسجن، فتكاثرت شائعاتنا حول السبب، ولم نتفق على سبب واحد.

قتلها لأنّه ضبطها في فراشه مع رجل مجهول تمكن من الفرار.

قتلها لأنّها سيئة الطباع، نكدة، فنفد صبره يوماً، والصبر قصير العمر مها طال.

قتلها لأنّها قبيحة، واشتهى فاكهة لا مثيل لها في بيته.

قتلها لأنّه أصيب بغتة بجنون جعله يعتقد أنّه مطوّق بالأعداء المجهولين.

قتلها لأنّه يحبّها وأصرّت على أن يطلّقها.

قتلها لأنّ مطالبها في النهار والليل لا تنتهي وأذلته الذلّ المرّ.

قتلها لأنّهما قررا الانتحار، ولكنّه جبن، فلم ينتحر.

قتلها لأنّه عاطل عن العمل، وعجز عن إطعامها.

قتلها لأنّه اكتشف أنّها كانت تنوي قتله.

تكاثرت شائعاتنا حول مقتل زوجة عمران القاضي، ولم نعرف السبب الحقيقي ولن نعرفه لأنّ عمران القاضي كان أبكم وأصم ولا يعرف القراءة والكتابة.

﴿البيت الجديد﴾

اشتهر مختار العلوش في حارتنا بأنّه الرجل الذي يسرق الكحل من العين، واشتهر أيضاً بحبّه للمشاجرات وصلته بلطفي العلاك الذي

كان شابّاً صغير السنّ أجمل من النساء وابناً لأغنى أغنيائنا، وقد حزن مختار عندما أبلغه لطفي أنّ أباه سيرسله إلى خارج البلاد ليتابع تعليمه، وامتعض وأسف، والتصق به، وقال له: «إياك أن تنسى ما بيننا».

ولمّا عاد لطفي بعد غياب دام سنوات، احتفل مختار بعودته طوال ليلة صاخبة، علم خلالها من لطفي أنّ أباه قرر تزويجه، واختار له فتاة جميلة وغنيّة ومن أسرة عريقة ذات حسب ونسب، وحدد موعداً لليلة الزواج.

وبدا لطفي مضطرباً حائراً مهموماً، فقال له مختار: «لا تبال. سأساعدك، وسأتعب حتّى ترضى وترضى زوجتك».

فقال له لطفي بصوت متلعثم: «وماذا سأفعل في الليلة الأولى؟».

قال مختار: «قلّد الأفلام، وتصنّع أنّك سكران ونمْ، وسندبر الأمور في الليالي الأخرى».

وتسلل مختار في الليلة الثانية إلى بيت لطفي الجديد، فبهره بيت لم ير مثله من قبل، ونسي ما جاء من أجله، ولم يف بوعده، وغادر البيت محملاً بما امتلكه من غير أن يتعب.

﴿الزلزال﴾

كان حميد الحفيان رجلاً فقيراً، كثير الشكوى من البطالة، يحدّث الناس أحياناً عن أصدقائه الجان وقوتهم وقدراتهم الخارقة، فيقولون له ساخرين: «إذا كان كلامك صحيحاً، فلماذا لا تطلب العون منهم؟».

وفي أحد الأيّام، تسلل حميد الحفيان إلى اجتماع مخصص لأهمّ الرجال في حارتنا، وهددهم بأنّه لن يمنع أصدقاءه الجان من تحويل

الحارة جحيماً لا تطاق أهواله إلاّ إذا دفعوا له راتباً سخيّاً كلّ شهر، فطُرد طرداً مهيناً كأنّه أقلّ قيمة من ذبابة، وليته لم يطرد، فما حدث في الحارة بعد طرده لا تأويل له سوى أن تهديده لم يكن كاذباً:

الشيخ جبر الأحمدي خرج من بيته، فتعثر، وكسرت ساقه اليمنى.

نزيه الفاضل يدخل عيادته المريض مصاباً بالزكام، فيخرج منها مصاباً بالسرطان.

نهاد المتزمل المحامي يخسر القضايا تلو القضايا حتّى بات الناس يتشاءمون منه.

عباس المعطي كلّما عقد صفقة تجارية لم يجن منها سوى الخسائر الفادحة.

سليمان العبود المشهور بحيائه قال لزوجته بصوت عال أمام أهل الحارة: «لماذا البخل؟ استأجري حماراً بدلاً مني».

واجتاحت البغضاء جارتنا، فالأزواج يتشاجرون مع زوجاتهم شجاراً ينتهي في مخافر الشرطة والمستشفيات والمحاكم الشرعية، والعشاق يتبارون في إذاعة الأسرار المخجلة، والأصدقاء تناسوا ما بينهم من صلات عميقة وتحوّلوا أعداء ألداء، والنساء يمشين في الشوارع بثياب تري ما كان لا يرى، ويشتغلن كالرجال، والأبناء يبصقون على آبائهم وأمهاتهم، ورجال الشرطة يخشون المرور السريع في الطرقات، ورجال الحارة كفّوا عن التردد إلى المسجد.

ولم يجد رجال الحارة مهرباً من أن يقصدوا حميد الحفيان متوسلين إليه أن يتدخل لمنع أصدقائه الجان من العبث بالحارة، ووعدوه بتخصيص مبلغ كبير من المال يتسلمه كلّ شهر وهو قاعد في بيته، فضحك حميد الحفيان، وأقسم أنّه سيحاول إقناع أصدقائه الجان

بعدم التدخل في شؤون الحارة، ولم يكن قسمه كاذباً، وعادت الحارة بعد أيام إلى ما كانت عليه، وعادت النساء إلى ارتداء الملاءات السود ولا يخرجن من بيوتهن إلاّ برفقة أمهاتهن أو أمهات أزواجهن وتحمر وجوههنّ خجلاً حين يلمحن رجلاً، وعاد الأبناء إلى تقبيل أيدي آبائهم وأقدام أمهاتهم، وعاد مخفر الشرطة مهاباً، وتعانق الأصدقاء باكين، واكتظّ المسجد بالمصلين، ولكنّ الشيخ جبر الأحمدي وحده ظلّ لا يستطيع السير إلا بمعاونة عصا غليظة.

وفي يوم من الأيام، عُثر على حميد الحفيان في بيته مقتولاً، ولم يعرف قاتله، واستولى دائنوه على بيته، وعرضوه للبيع في المزاد العلني، فلم يوافق أحد على شرائه، وترك البيت مهجوراً مهملاً، تسطع مصابيحه الكهربائية ليلاً، وتنبعث من داخله ضحكات مرحة ساخرة.

﴿ليلة الكنز﴾

ادّعينا أننا نواظب الحفر في أرض باحة أحد بيوتنا باحثين عن كنز مدفون حتّى استحالت الأرض حفراً متباعدة تشبه حفر القبور، وتنقلنا من مقهى إلى مقهى، وادّعينا أيضاً أننا قد عثرنا على كنز لا تقدر قيمته بمال، ولم نبعه منتظرين أغلى سعر، وعدنا إلى البيت الذي زعمنا أننا قد عثرنا في أرضه على الكنز لنباغت قبل صلاة الفجر بأنّ الرجل المشهور في حارتنا بتقواه وورعه وزهده هو الذي تسلل إلى بيتنا يبغي السطو على كنزنا، فأمسكنا به، وأوثقناه بالحبال، وسألناه عمّا يفضّل أن نفعل به، فقال لنا: «إمّا أن تستدعوا رجال الشرطة وتسلموني إليهم، وإمّا أن تنسوا ما حدث وتطلقوا سراحي فوراً».

فقلنا له: «أنت تطالب بتسليمك إلى رجال الشرطة لوثوقك بأنّ

صديقك رئيس المخفر لن يخذلك ولن يعتقلك لحظة واحدة، وقد يعتقلنا بتهمة أننا أقدمنا على سرقتك».

وسارعنا قبل أن يتكلّم إلى عصب فمه حتّى لا تبدر منه أيّة صيحة، وضربناه بالعصيّ ضرباً مؤلماً، ثمّ حملناه متذمرين من ثقله، ورميناه في أكبر الحفر في باحة البيت، وحملنا الرفوش، وأهلنا فوقه تراباً كثيراً ثمّ جلسنا على ذلك التراب ندخن السجائر ونحتسي الشاي على مهل ونتخيّل صوت المدفون يتناهى إلينا خافتاً متضرعاً، فنتبادل النظرات المرحة، وننتظر لصوصاً آخرين.

﴿الأيتام﴾

اسودّت وجوهنا ونحن نكذب دفاعاً عن صديقنا عزّت الجعظي المتّهم بأنّه يهمل أبناءه إهمالاً لا يمكن أن يصدر عن أب، ولكنّه تمادى في مسلكه المخجل حتّى اضطررنا إلى التدخل فيما لا يعنينا كأنّه يعنينا، وزرنا بيته ذات مساء، وحاصرناه بالكلام الموبخ والوجوه العابسة.

قلنا له: «أبناؤك جائعون».

فقال لنا عزّت الجعظي: «ليس بعد الجوع إلاّ الشبع والتخمة، ومن ينتظر أن يأكل ليس له أن يتذمر إذا طال انتظاره».

قلنا له: «أبناؤك حزانى ليل نهار».

فقال لنا عزّت الجعظي: «من لا يحزن لا يفرح، والحياة كلّها خاضعة لقانون لا يتبدل: ساعة للفرح وقرون للحزن».

قلنا له: «أبناؤك مرضى».

فقال لنا عزّت الجعظي: «من الضروري تجويع الأطباء، ولن أرثي لهم إذا جاع أطفالهم أيضاً».

قلنا له: «أبناؤك قانطون يائسون».

فقال لنا عزّت الجعظي: «ومن ادعى أنّ نسلي من صخر أو فولاذ؟».

قلنا له: «أبناؤك يمزقون ثيابهم غيظاً من حياتهم».

فقال لنا عزّت الجعظي: «سيندمون حين يضطرون إلى شراء ثياب غيرها».

قلنا له: «أبناؤك لا يكفّون عن السؤال عن أمّهم المفقودة».

فقال لنا عزّت الجعظي: «أمّهم ماتت، ولا يصدقون، ويعتقدون بأنّها ما زالت حيّة».

قلنا له: «أبناؤك يستغيثون».

فقال لنا عزّت الجعظي: «ما تسمعونه ليس استغاثات بل هو أصوات الريح».

قلنا له: «أبناؤك تحدق بهم الكوارث».

فقال لنا عزّت الجعظي: «الكوارث مدارس مجّانية مختصة بتعليم من لا يتعلم».

قلنا له: «الموت سيأتي قريباً إلى ديار أبنائك».

فقال لنا عزّت الجعظي: «لا شيء آت إلاّ الشتاء بعد الخريف».

قلنا له: «أبناؤك يموتون».

فقال لنا عزّت الجعظي: «كلّ حيّ له نهاية لا مفرّ منها».

قلنا له: «أبناؤك يموتون الواحد بعد الواحد».

فقال لنا عزّت الجعظي: «الموت رحيم رؤوف شفيق».

فقلنا له بأصوات متهدجة: «أبناؤك ماتوا أجمعين».

فقال لنا عزّت الجعظي: «ما دمت حيّاً ولم أمت، فكلّ شيء على ما يرام، ولا داعي إلى أيّ قلق».

فغادرنا بيت عزّت الجعظي، وسرنا في الشوارع، فإذا كلّ شيء على ما يرام.. القمر قمر، والسماء سماء، والأرض أرض، والليل ليل.

﴿الزوجة الخامسة﴾

كلّ رجل من رجال مدينتنا اكتفى بالزواج من امرأة واحدة ترغمه على الشكوى والأنين، ولكنّ جميل الجمل كان مختلفاً إذْ تزوج عشرات النساء، ولم تعش معه امرأة أكثر من سنتين، يطلّق ويتزوج حريصاً على أن يظلّ زوجاً لأربع زوجات لا أكثر ولا أقلّ.

وقد هيمن القلق والاضطراب على زوجاته الأربع لمّا لاحظن أنّه يواظب على الصلاة يومياً في المسجد، وهنّ العارفات بأنّ هذه التقوى المفاجئة لا تنتابه إلاّ حين يزمع تطليق إحداهن والزواج من أخرى، وتساءلن عن المرشحة للطلاق، ولم يعلمن من ستكون، فهو وديّ مع الأربع، ولم يبدّل عاداته بالنوم ليلة عند كلّ واحدة منهن، وحاولت كلّ واحدة في ليلتها أن تستدرجه إلى التكلّم عما ينوي فعله، فكان يُنكر ويستنكر، ويقول لكلّ زوجة: «ما هذه الأفكار الحمقاء؟ سأدعو لك اليوم بعد الصلاة حتّى يهديك الله ويصلح عقلك».

ولكنّ ما فعله جميل الجمل فاق أيّ توقع إذْ طلق زوجاته الأربع في يوم واحد، وتزوج فاطمة الفتاة التي تشبه عصفوراً مرحاً ليصبح

أوّل مرة في حياته زوجاً لامرأة واحدة فقط، يحبّها ولا يخالف رأياً من آرائها، ويتوهم أنّها تحبّه أكثر مما يحبّها.

واستغرب أهل الحارة هذا الزواج بين كركدن وغزال، واتهموا أهل فاطمة بأنّهم أغروا ببيعها بسعر باهظ، ولكنّ فاطمة قالت لجاراتها المدهوشات وهي تضحك: «أن أتزوج رجلاً يكبرني في السنّ، يعرف قيمتي ويحبّني ويدللني أفضل لي من أن أتزوج أجمل شاب يهملني وأتعذب حتّى أرضيه».

وبعد أشهر، اختلفت أحوال فاطمة، واختفى مرحها، وصارت مهمومة دائماً، يقول لها زوجها ما يُضحك فلا تضحك، ويكلّمها فتردّ بأقلّ قدر من الكلمات، وحاول جميل الجمل أن يعرف سبب تبدّلها، فكانت تجيب أنّها بخير، والتبدل الذي يحكي عنه لا وجود له، ولكنّها في إحدى الليالي باحت له بأنّها خائفة من المستقبل، وتساءلت عمّا سيحلّ بها إذا مات فجأة، فإذا جميل الجمل يتنازل لها عن كلّ ما يملك من بيوت ودكاكين وأموال في المصارف، وتوقع أهل الحارة أن تبادر فاطمة إلى طلب الطلاق منه، ولكنّها لم تفعل، وحاول كثيرون من الشبان مغازلتها وإغراءها، فلم يلقوا إلاّ الازدراء الغاضب.

ولمّا مات جميل الجمل بعد سنوات قليلة، رفضت فاطمة أن تتزوج مرة ثانية، وعاشت ما تبقى لها من العمر من دون أن تتخلى عن الثياب السود.

﴿ليته لم يتكلّم﴾

أقسم كاظم البطل أمام الناس أنّه لن يتكلّم طوال حياته، ولن يستخدم لسانه إلاّ لابتلاع الطعام، وبرّ بقسمه، وظلّ أسابيع صامتاً

لا يتفوه بكلمة، وعلم رئيس مخفر الشرطة بصمته، فاستدعاه، وسأله: «لماذا لا تتكلّم؟».

فلم يجب كاظم، فقال له رئيس المخفر: «لو لم تكن قد فعلت ما يخالف القوانين وتخشى أن تسهو وتتكلّم عنه لما امتنعت عن الكلام».

فلم يجب كاظم، فابتسم رئيس المخفر، وقال لكاظم: «ما دمت مصرّاً على الصمت، فسنضطر إلى استخدام ما لدينا من وسائل تحوّل الخرس ثرثارين».

فلم يجب كاظم بكلمة إنما شحب وجهه، ولمّا خرج بعد أيّام من مخفر الشرطة كان قد عاد إلى التكلّم، وقال لزوجته إنّها طالق، وقال لأصدقائه إنّهم مجرد خنازير، وقال لدائنيه إنّه لن يدفع لهم ما اقترضه منهم من أموال، وقال لأهل الحارة إنّه لن يصلي ولن يصوم، وقال لهم أيضاً إنّه سيسافر إلى بلاد بعيدة ولن يرجع إلى المدينة، وسيوصي ألاّ يدفن في أرضها.

ونفذ كاظم البطل معظم ما قاله: طلق زوجته، وخسر أصدقاءه، وفقد حصّته في الجنة، ولم يف ديونه، ولكنّه لم يسافر، وبقي في المدينة حتّى موته، ودفن في مقبرتها، ولم يسر في جنازته إلاّ قلائل من فاعلي الخير.

﴿لصوص﴾

ماتت فدوى ابنة بهيج العلواني قبل أن تحبّ وتتزوج وتنجب الصبيان والبنات، وقبل أن تكمل دراستها الجامعية وتحقق حلمها بأن تصبح طبيبة أطفال ذائعة الصيت.. ماتت فجأة بينما كانت تسير في أحد الشوارع، وسقطت أرضاً ميتة، فحزن أبواها الطاعنان

في السنّ اللذان ليس لهما من الأبناء غيرها، وحزن كلّ من سمع بما جرى لفدوى، واتهم الموت بالقسوة والطيش، يُهلك الطيّب ويمهل الخسيس، ففدوى لم تكن سوى صبيّة رقيقة، وديعة، لم ير يوماً وجهها عابساً، وتشبه زهرة بيضاء تنبت بين الأنقاض.

ولم يحتمل أبواها ما جرى، ومرضا، وذهبا يوماً إلى عيادة أحد الأطباء، فتسلل لصوص مجهولون إلى بيتهما، وعبثوا بكلّ محتوياته، وبعثروها من دون أن يسرقوا شيئاً، واحتار رجال الشرطة، فالخزانة الحديدية المقفلة التي يملكها بهيج العلواني تمكن اللصوص من فتح بابها، ونثروا على الأرض ما كان فيها من أوراق نقدية كثيرة تغري بالسرقة، وما كانت تملكه أمّ فدوى من حلى ذهبية عثر عليه اللصوص أيضاً، واكتفوا بإلقائه أرضاً، وبدا كأنّ غاية اللصوص لم تكن السرقة بل إتعاب ساكني البيت، ولكنّ أمّ فدوى عندما تمكنت بعد أيّام من ترتيب البيت كما كان اكتشفت أنّ اللصوص سرقوا كلّ ما في البيت من صور فوتوغرافية لفدوى.

﴿أكاذيب الأهبل﴾

طارد الأولاد نجمي الأهبل، ورجموه بالحجارة وقشور البطيخ والبرتقال، فاضطر إلى دخول بيت متهدم مهجور يسكنه الجان، ويخيف الصغار والكبار، ولكنّه لم يمكث فيه سوى لحظات خرج بعدها يزعق مرعوباً، فأمسكه الرجال، وحاولوا تهدئته بكلّ الوسائل، وسألوه عمّا رأى في البيت المهجور، فقال إنّه رأى جثث أربعة رجال قتلوا أبشع قتل، وهم الشيخ جبر الأحمدي والتاجر عباس المعطي والمعلم سمعان الكردي ورئيس المخفر، فسخر الرجال منه، ولم يصدق أحد ما قاله، فالشيخ الجليل جبر الأحمدي مرّ في الحارة قبل دقائق سليماً وازداد صحة، وعباس بك المعطي يدخن

الآن النارجيلة في المقهى، وسيادة رئيس المخفر شوهد صباحاً يدخل المخفر دخولاً صاخباً، وهاهو ذا الأستاذ الفاضل سمعان الكردي يقف معهم ضاحكاً.

ولمّا علم رئيس المخفر بأكاذيب نجمي الأهبل، استشاط غيظاً، وأمر بطرحه أرضاً أمام أهل الحارة وضربه بالعصا على باطن قدميه ضرباً شديداً، فصاح نجمي الأهبل صياح المذبوح، ووعد بألاّ يرى جثثاً.

﴿المقبرة الجميلة﴾

تمشي عائشة في الشارع، فتغلي دماء الرجال في عروقهم، ويحملقون إليها بحسرة، ولكنّهم يخشون الاقتراب منها لأنّها لا ترحب إلاّ بالزواج، وسبق لها أن تزوجت ثلاث مرات، ومات أزواجها الثلاثة موتاً طبيعياً غير متوقع، ولكنّ محمود الدلّال المسحور بها لم يكن قادراً على الإنصات لما كان يقال عنها، وعرض عليها الزواج، فوافقت بحماسة امرأة وجدت مصادفة رجلها المناسب، فأوشك محمود أن يجنّ فرحاً، ولكنّ فرحه غاض عندما سخر منه الرجال والنساء، ونصحوه بشراء كفن وقبر إذا ظلّ مصمماً على الزواج من عائشة، وقبل يومين من اليوم المحدد للزواج، دخل محمود إلى دكان اللحام الذي كان منهمكاً في تقطيع اللحم بسكين كبيرة، ومدّ يده اليمنى إلى درج خشبي اعتاد اللحام أن يضع فيه النقود، فسأله اللحام مدهوشاً: «ماذا تفعل؟».

فأجاب محمود: «سآخذ ما فيه من نقود، وآمل أن تكون كثيرة».

فأمسك اللحام به، ووضع سكينه على حنجرته قائلاً له: «إذا تحركت حركة واحدة، قطعت رأسك، وحسبت أنّ الله لم يخلقك».

واستدعى اللحام رجال الشرطة، فاعترف محمود لهم بأنّه كان يريد الاستيلاء على نقود اللحام لأنّه سيتزوج بعد يومين، ويحتاج إليها، فاعتقل، وحوكم، وحكم عليه بالسجن، فاضطر الناس إلى الإعجاب به والإقرار بأنّه لم يكن غبيّاً.

﴿الصبيّ﴾

أنجبت سميّة زوجة سعيد الباجي أربع بنات، أما مولودها الخامس فقد كان صبيّاً، ففرح سعيد فرحاً أفقده بعض عقله إذ صار يتوهم أنّ ابنه سرحان البالغ من العمر عشرة أيّام يكلّمه ويصمت حين يرى أمّه أو آخرين، فسألته سميّة بفضول: «ماذا يقول لك حين يكلّمك؟».

قال سعيد: «لا يريد الذهاب إلى المدرسة».

قالت سميّة: «الدراسة تجلب الأوجاع للعينين».

قال سعيد: «ولن يعمل أيّ عمل».

قالت سميّة: «ومن لا يمقت العمل؟».

قال سعيد: «وسيحبّ مليون امراة ولايتزوج».

قالت سميّة: «سيكون أعقل من أبيه».

قال سعيد: «ولن ينجب أيّ أولاد».

قالت سميّة: «سنستأجر من يقول لك: يا جدّي».

قال سعيد: «وسيمضي حياته نائماً».

قالت سميّة: «النوم يفيد الجسم والعقل».

ولم تنج سميّة مما أصاب زوجها، وفقدت أيضاً بعض عقلها، وباتت تتوهم أنّ ابنها سرحان البالغ من العمر ثلاثين يوماً يكلّمها

ويصمت حين يرى أباه أو آخرين، فسألها سعيد: «وماذا يقول لك حين يكلّمك؟».

قالت سميّة: «كلّ ما قاله لي سرّ، وعاهدته على ألاّ أبوح به».

قال سعيد بغضب: «ألم أقل لك ماذا قال لي، فلماذا لا تقولين لي ما قاله لك؟».

فأبت سميّة أن تحكي عمّا قال لها ابنها سرحان، وتشاجر الزوجان شجاراً صاخباً ذاعت أخباره في حارتنا، وانقسم سكانها فريقين، فريق يؤيد الرجل وحقّه في معرفة ما قيل، وفريق يناصر المرأة معجباً بحرصها على كتمان أسرار ابنها.

﴿المحترقون﴾

كان جعفر الأفيوني رجلاً متعجرفاً، فظّاً، كثير المال، بخيلاً، حاول طوال أشهر إغراء ثلاثة يملكون أجمل بيوت في الحارة ببيع ما يملكون بالأسعار التي يرغبون فيها، فكانت ردودهم متشابهة: ولدوا في تلك البيوت، وسيموتون فيها، ولن يرضوا بديلاً عنها، وأبناؤهم ولدوا فيها وسيموتون فيها، فلم يغضب جعفر الأفيوني عليهم إنما ابتسم مشفقاً هازئاً، ووصفهم بأنّهم حمقى وأعداء أنفسهم، وهم من الخاسرين.

وبعد أيّام، شبّت النار ليلاً في بيت عثمان الحسيبي، ولولا مسارعة رجال الإطفاء إلى إخماد الحريق لامتدت النار إلى بيوت أخرى واحترقت الحارة بكاملها، واتهم عثمان الحسيبي أعداء له بأنّهم هم الذين أحرقوا بيته، ولكنّه عجز عن تحديد اسم واحد منهم، وقال رجال الإطفاء إنّ ما في البيت من أسلاك كهربائية كان عتيقاً مهترئاً، وقد يكون هو المسؤول عن الحريق، وزعم بعض شبّان

الحارة أن ليلى زوجة عثمان الحسيبي نار لم تجد من يطفئها وأحرقت البيت.

وبعد أيّام، شبّت النار في بيت نادر الطيّب، وأطفئت بسرعة، ولم يتهم نادر أحداً، والأسلاك الكهربائية في بيته جديدة ونجت من أيّة تهمة، وزوجته عجوز لم يستطع الشبّان تحميلها مسؤولية ما حدث.

وبعد أيّام، شبّت النار في بيت مفيد العريان، فسارع هو وزوجته وأولاده العشرة إلى إطفاء النار التي لم تحرق سوى باب البيت، فأجمع أهل الحارة على أنّ هذه الحرائق الثلاث متعمدة ولا بدّ لها من مدبر، وطالبوا سيارة المطافىء بألاّ تفارق الحارة، وتباروا في مواساة أصحاب البيوت المحترقة حتّى أنّ جعفر الأفيوني نفسه عرض من جديد شراء البيوت التي احترقت، ولكنّ الأسعار التي اقترحها كانت بخسة، فرُفض عرضه، فاقترح عليهم أن يقرضهم ما يحتاجون إليه من مال لإصلاح بيوتهم، فرفضوا اقتراحه لأنّه اشترط فائدة أعلى من فائدة المصارف.

وتأهبت الحارة لمواجهة المزيد من الحرائق، ولكنّها لم تشهد احتراق بيت رابع، فكانت الغلبة للقائلين إنّ ما احترق من بيوت ليس سوى تذكير بالنار الأخرى التي تنتظر من يعصى ربّه، والعصاة أكثرية، والمطيعون أقلية.

﴿النهاية السّارة﴾

زار رجال الشرطة في الصباح المبكر بيت سامح المؤذن، فاستقبلهم وهو في ثياب النوم يتثاءب ويتمطى، فاعتقلوه توّاً، ومن غير أن يسمحوا له بتغيير ثيابه، ولم يُعرف سبب اعتقاله، ولم يُسأل سامح

في المخفر أيّ سؤال، ويؤمر بالسكوت حين يسأل عن سبب اعتقاله.

ومرّ الأسبوع الأوّل على اعتقال سامح المؤذن، فقصد عدد من أقاربه الطاعنين في السنّ مخفر الشرطة، وسألوا عنه، فقيل لهم إنّهم سيعتقلون إذا سألوا عنه مرة أخرى.

وأثار اعتقال سامح المؤذن دهشة كلّ الذين عرفوا سامح المؤذن، فهو رجل شديد الحرص على إطاعة كلّ القوانين وعدم مخالفتها حتّى أنّه يغضب على من ينتقل من رصيف إلى آخر من دون أن يستخدم ممر المشاة، ويستوقفه ويؤنبه كأنّه هو الذي وضع القوانين المنظمة للمرور، وكان قليل الكلام، لم ينتسب يوماً إلى حزب حكومي أو حزب معارض، ولم يغضب أحداً طوال حياته، ويشمئز من النقد والمنتقدين، فإذا أمطرت امتدح المطر، وإذا ظلّ المطر سبع سنوات لا يهطل امتدحه أيضاً قائلاً: «ربّ ضارة نافعة!».

ولكنّ كلّ الذين عرفوا سامح المؤذن واستغربوا اعتقاله قالوا في الوقت نفسه إنّ أهل مكّة أدرى بشعابها، ورجال الشرطة أدّوا واجباً عيّنوا من أجله، ولا بدّ من أن سامح المؤذن ارتكب ما يسوّغ اعتقاله.

وبعد شهرين وثلاثة أسابيع وأربعة أيّام، أطلق سراح سامح المؤذن، وعاد إلى بيته ليستقبل وفود المهنئين، فسأله بعض أصدقائه عن سبب اعتقاله، فأجاب بصوت هامس: «لعلّ رجال الشرطة علموا بمشاجراتي مع زوجتي، وأرادوا ألاّ تنتهي نهاية غير سارة».

وعندما شاع ما قاله سامح المؤذن، امتنع الرجال عن التشاجر مع زوجاتهم، وارتدوا ثيابهم في أثناء نومهم كأنّهم سيغادرون بيوتهم بعد دقائق.

﴿حمحمة الفرس﴾

هربت حنان المعلّى من البيت المهجور الذي يسكنه الجان، وركضت إلى مخفر الشرطة، وأخبرت رجاله بما يثير الدهشة والاستياء: كانت تمشي في الحارة بالقرب من البيت المهجور، ولو كان الظلام مخيّماً لما جرؤت على ذلك المشي، ولكنّ الشمس كانت مشرقة والشارع مزدحماً بالمارين، فإذا حميد العذري ينقض عليها فجأة، ويجرّها إلى داخل البيت، ويرميها أرضاً، ويوثقها بالحبال الغليظة، ويكمم فمها، وينهال عليها بالضرب المؤلم حتّى أغمي عليها، ولمّا صحت من إغمائها وجدته فوقها منهمكاً في اغتصابها، فسارعت إلى إغماض عينيها، وتصنعت أنّها لاتزال مغمى عليها خوفاً من ضرب جديد، فبادر رجال الشرطة إلى القبض على حميد العذري، وأحضروه إلى المخفر مهاناً محقّراً ليواجه حنان المعلّى الغاضبة الخجلى، فأنكر كلّ ما اتهمته به، وتساءل بصوت مضطرب: «أيُعقل أن يغتصب رجل مثلي في التسعين من عمره امرأة في الثلاثين من عمرها تشبه فرساً جموحاً غير مروّضة؟!».

فلم يبال أحد بالجواب عن تساؤله، ووجد نفسه أمام خيارين: إمّا أن يتزوج ضحيته ويمحو آثار فعلته الشائنة، وإمّا أن يسجن ويعاقب، فلم يفكر أو يتردد، وأبى فوراً الزواج من حنان، واتهمها بأنّها تطمع في أن ترث ثروته، فقوبل كلامه بالضحك والهزء، وأحيل إلى المحاكمة، فطلب القاضي إلى حنان أن تروي كلّ ما حدث لها بالتفصيل، فتكلمت مطوّلاً مثبتة أنّها تملك ذاكرة خارقة لا تهمل أيّة جزئية مهما صغرت، فتصبب العرق من وجه القاضي، والتفت إلى حميد، وأمره بأن يذكر له اسم الدواء الذي كان يتناوله، وكان

سبباً في جعله واحداً من عتاة منتهكي الأعراض، فبُهت حميد، ولم يفه بكلمة، وبدا كمن لطم من حيث لا يتوقع، فكرر القاضي أمره بنزق، فقال حميد بصوت مرتبك إنّه لا يتناول إلاّ الأدوية المسكنة للأوجاع والمنوّمة، فغضب القاضي عليه، وحكم عليه بالسجن مدة لا تخرجه من السجن إلاّ في كفن، وما حدث لحميد وحنان كان الموضوع الأوّل الذي يُحكى عنه في السهرات التي أسفرت عن تأويل جديد راج في الحارة، ويدّعي أنّ الجان الذين يقيمون بالبيت المهجور هم المسؤولون عمّا حدث لحنان، ولا بدّ من أنّ أحد شبّانهم الأقوياء قد تنكر في هيئة حميد العذري، واعتدى عليها، ولكنّ النساء اللواتي تغلبن على خوفهن وتسللن إلى البيت المهجور خرجن منه ممتعضات حانقات على ذلك التأويل الكاذب.

﴿المحظوظ﴾

إدعى نعيم الحيّاك أنّه كان نائماً عندما رأى أنّه قد دخل الجنة آمناً مطمئناً، وتجوّل في أرجائها متفحّصاً مدهوشاً، ثم هرع إلى حارس أبوابها، وقال له بنزق: «ما هذا؟ لقد وعدنا بأجمل النساء، ولا أرى هنا إلاّ أقبح النساء».

فقال له الحارس: «لم أسمع عن جائع يتدلل على الخبز اليابس ولا يأكله حامداً شاكراً».

قال نعيم: «ووعدنا بالغلمان، ولم أر غلاماً واحداً».

فقال له الحارس: «من المخجل حقّاً أن تقول مثل هذا الكلام السوقيّ».

قال نعيم: «ووعدنا بالكثير من الخمور، ولم أجد إلاّ الماء».

فقال له الحارس: «ما رأيته في حياتك يجعلك إلى الأبد غير محتاج إلى أيّ خمر».

قال نعيم: «ووعدنا بأرض خضراء دائماً، ولم أر سوى الرمل والغبار».

فقال له الحارس: «من وعدكم كان محبّاً للمزاح البريء».

قال نعيم: «ووعدنا بالقصور، ولم أر سوى الخيام».

فقال له الحارس بصوت مهدد: «إذا واصلت التأفف والتذمر، فلن تحصل على أيّة خيمة».

فسارع نعيم إلى القعود في إحدى الخيام تحيط به أقبح النساء، وشرع في الإعداد للفرار إلى جهنم.

وأفاق نعيم من نومه في تلك اللحظة ليجد أنّه لا يزال في فراشه، ففرح فرح الناجح في الفرار.

﴿ظلمات فوق ظلمات﴾

لمحنا جارنا يطلّ من شرفة بيته في الطابق السابع من المبنى الضخم الذي نسكن في أقبيته، فأغرانا ما نعرفه عنه بأن نلوّح له بأيدينا مطلقين الصيحات التي تناديه وترجوه أن يهبط من أعلى إلى أسفل لأمر مهمّ للغاية لا يحتمل التأجيل، ولم ندهش عندما سارع إلى تلبية ندائنا، وقلنا له: «ماذا تفعل وحدك فوق؟ ألم تضجر؟».

فقال لنا متسائلاً بمرح: «وأنتم ماذا تفعلون تحت؟».

فقلنا له: «ما رأيك في أن نتسكع قليلاً لترى ما لم تكن يوماً تتوقع أن تراه؟».

فقال لنا إنّ ما نقترحه عليه لا يثير فضوله، فلا وجود لشيء لم يره

أو لم يعلم به، فقلنا له: «جرّب، وسترى أنّنا لا نكذب».
وسرنا معاً في الأرض تلاحقنا الصيحات المستغيثة وتطوقنا.
رأينا رجالاً يحفرون قبوراً لنساء لن يحبّوا غيرهنّ..
رأينا أروع نساء يتحوّلن دمى من شمع وحرير..
رأينا مشانق يتدلى منها أطفال وعصافير..
رأينا ورداً أبيض تحوّله الدماء المسفوكة ورداً أحمر..
رأينا أنهاراً تستجدي الماء من الرمال..
رأينا جبالاً شاهقة تستحيل غباراً..
رأينا أمهات يرمين أطفالهن في صناديق القمامة..
رأينا أبناء يركلون آباءهم وأمهاتهم ضاحكين..
رأينا رجالاً يبترون أقدامهم غير آسفين لتحقّ لهم الإقامة بملاجىء العجزة..
رأينا رجالاً يُعرضون للبيع، ويغتمون حين لا يجدون مشترياً..
رأينا أوثاناً تُعبد وتُطاع ويُلقى بمن يعصى في نار الدنيا..
رأينا نجوماً تبتهل إلى الناس المحنيّة رؤوسهم أن يوّدعوها قبل أن يتواروا..
رأينا طيوراً نسيت كيف تطير..
رأينا أفيالاً جنّت وتتوسل إلى أرانب مذعورة أن تؤجل افتراسها..
رأينا جرذاناً تطارد قططاً تجري بأقصى سرعة وتموء مرعوبة باحثة عن حماية..
رأينا أجمل كلمات تُخنق..
رأينا صخراً يبكي..

رأينا قمراً يبزغ على مدن ليس فيها سوى المنتحرين طلباً للنجاة مما هو أشدّ هولاً من الموت..

رأينا مدناً تنتحب طوال الليل، وتمسح دموعها في النهار مطلقة الضحكات..

رأينا سجناء يكرهون يوم خروجهم من السجون..

رأينا أمماً تولد في القبور وتموت في القبور..

رأينا أطفالاً لم يعرفوا الضحك ولا البكاء..

رأينا شعوباً معصوبة العيون تنتظر لحظة إعدامها، ويتأخر جلادوها في التنفيذ حتّى يتمتعوا برؤية رعبها.

فنظرنا بفضول إلى جارنا العليم بكلّ شيء، فإذا هو واجم غاضب كأنّ الذين رآهم يتعذّبون هم أبناؤه العاجز عن نجدتهم، ولم يحاول في أيّ يوم الرجوع إلى حيث كان يقيم، وازداد عدد المعذبين.

زكريا تامر

سنضحك

قصص

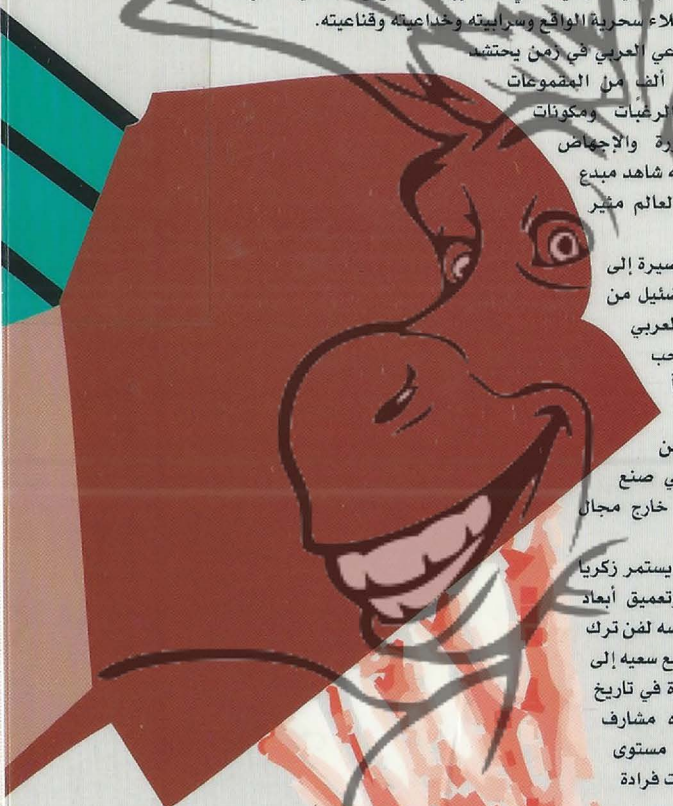

زكريا تامر هو دون ريب فنان الكشف والفضح والتعرية، تتحرك كتابته الأخاذة في فضاء يتقاطع فيه الوعي بما هو دفين في فوضى مرعبة، في أغوار اللاوعي، والعادي بالخارق، والسحري بالمألوف، والعقلاني بالجنوني، والفاجع المأسوي بالمقهقه الساخر، وهو يؤسس، بذلك كله وبغيره، جماليات جديدة هي سمة إبداعه الأولى: جماليات خُرْقَنَة العاديّ، وعَوْدَنَة الخارق، وجلاء سحرية الواقع وسرابيته وخداعيته وقناعيته.

إنه حفّار قبور ما تحت الوعي العربي في زمن يحتشد فيه هذا الما تحت بألف ألف من المقموعات والمكبوتات والشهوات والرغبات ومكونات الفجيعة والانكسار والثورة والإجهاض والتناقضات والصراعات. إنه شاهد مبدع على عصره، وصانع فنّان لعالم مثير حتى الإرعاب.

لقد ارتقى بفن القصة القصيرة إلى مستوى لم يبلغه إلاّ عدد ضئيل من المبدعين، لا في العالم العربي وحسب، بل في العالم الرحب كله، وقدّم إسهاماً عربياً أصيلاً في تكوين فضاء الإبداع المعاصر، في زمن ضمُر فيه إسهام العرب في صنع ثقافات العالم وحضاراته، خارج مجال الإبداع، ضموراً فاجعاً.

في قصصه الجديدة، هذه، يستمر زكريا تامر في مغامرة كشفه وتعميق أبعاد تكوينه المعرفي، وفي إخلاصه لفن ترك عليه وسمه المتميز، كما يتابع سعيه إلى ربط فن السرد بمنابع غائرة في تاريخ الإبداع العربي وإلى اكتناه مشارف للإبداع القصصي على مستوى العالم. إنه أحد أكثر الأصوات فرادة وتميزاً في تاريخنا الأدبي.

د. كمال أبو ديب
(من مقدمة الكتاب)

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر